حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا

تأليف
عبد الحميد كشك

المكتبة التوفيقية
أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين

﴿مقدمـــة الكتـــاب﴾

الحـمـد لله رب العـالمين، وأشـهـد أن لا إله إلا الله ولى الصـالحين، وأشهد أن سيدنا وحبيبنا وعظيمنا محمداً رسول الله.

أما بعد...

فقد كان فاروق هذه الأمة عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- يقول: حاسبـوا أنفسكم قبل أن تحاسبـوا وزنوا أعمالكم قـبل أن توزنوا فإن مما يهون عليكـم الحساب غـداً أن تحاسبـوا أنفسكم اليوم، وتـزينوا للعرض الأكبر ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾[1].

رحمك الله يا أمير المؤمنين فأنت الرجل الذى ضرب الله الحق على قلبه ولسانه، يـا من كنت تخاف من الله تعالى خوف من يعـتقد أن النار لم تخلق إلا له وحـده فمن خـاف سلم، لقد غـصت فى معـانى آيات الحسـاب حتى بلغت إلى أعـماق الأعمـاق وجرى دمعـك على خديك وخفق قلبك وجلاً وخوفًا من لقاء الله تعالى، وفهمت أن لقاء الله حق، واعتـقدت أن البعث حق وأن السـاعة حق وأن الجنة حق وأن النار حق، فصمت عن الدنـيا وأفطرت على الموت وأعددت الزاد لليلة صبـحها يوم القيامة.

---

(١) سورة الحاقة الآية ١٨.

يا رافـعًـا راية الـشورى وحـارسـهـا
جـزاك ربك خـيـراً عن مُـحِـبِّـيـهـا
رأى الجـمـاعـة لا تشـقى البـلاد به
رَغم الخـلاف ورأى الفـرد يُشْـقِـيـهـا
إن جـاع فى شـدة قـوم شَـرِكْـتَـهُمُ
فى الجـوع أو تنجلـى عنهم غـواشـيـهـا
جـوع الخليـفـة - والدنيـا بقبـضـتـه -
فى الزهد منزلة سـبـحـان مـوليـهـا
فـمن يبـارى أبـا حـفص وسـيـرته
أو من يحـاول للفـاروق تشـبـيـهـا
يوم اشـتـهت زوجه الحَـلْوَى فقـال لهـا:
من أين لى ثمـن الحَلْوى فَـأشْـتـريها؟
مـازاد عن قـوتـنـا فـالمسلمـون به
أولى فـقـومى لبـيت المال رُدِّيـهـا
كـذاك أخـلاقـه كـانت ومـا عُـهِـدَتْ
بعـد النبـوة أخـلاق تحـاكـيـهـا
وراعَ صـاحـبَ كـسـرى أنْ رأى عُـمَـرا
بين الرعـيـة عُـطْلاً وهو راعـيـهـا
فـوق الثـرى تحت ظل الدوح مشـتـمـلا
ببـردة كـاد طول العـهـد يبليـهـا
وعـهـده بملوك الفـرس أن لهـا
سُوراً من الجند والأحـراسِ يَحـمـيـهـا

رآه مـسـتـغـرقًـا فى نومـه فـرأى
فيـه الجلالة فى أسـمـى مـعـانيـهـا
وقـال قَـولَـةَ حَقٍّ أصـبـحـت مثـلاً
واصـبح الجيل بعـد الجِـيلِ يَرْويهـا
امنت لما أقـمـت العـدل بينـهُمُ
فنِمْتَ نَوْمَ قَـريرِ العين هـانيـهـا
قـد كنت أعـدى أعـاديهـا فـصرت لهـا
بنعـمـةِ اللهِ حـصنا من أعـاديهـا

أيها الأخ المسلم

لا تنس مـا بعد الموت، فنسيانه ضلال مبين، فاذكـر اثنين وانس اثنين، ولا تنهر اثنين واحفظ اثنين ولا تأمن اثنين على اثنين.

اذكر الله والموت، وانس إحسانك إلى الناس، وإساءة الناس إليك، ولا تنهر أمك ولا أباك، واحفظ صمتك وأوقات فراغك، ولا تأمن امرأة على سر، ولا تأمن رجلاً على امرأة.

واعمل عقلك وقلبك وفكرك فى فـهم قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ولا تكونوا كالـذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون. لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾**[1].

(١) سورة الحشر الآيات [١٨ : ٢٠].

فصل
[illegible] يرقق القلب ويَمْلَؤه خشوعًا وخشية لله تعالى

[illegible] لله رب العالمين، وأصلى وأسلم صلاة وتسليمًا يليقان بمقام [illegible] والمرسلين. وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين وأشهد أن [illegible] وعظيمنا وحبيبنا محمدًا رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين.
[illegible] وسلم وبارك على هذا النبى الأمين، وعلى آله وصحابته الغر [illegible] وارحم اللهم مشايخنا، ووالدينا وأمواتنا وأموات المسلمين [illegible]

[illegible] لله الذى لا تدركه الأوهام ولا الظنون ولا تحويه الأبصار ولا [illegible] لا تناله الآفات ولا المنون، الذى أنزل الكتاب المكنون وأرسل [illegible] المحتود وأخرج رطب الثمار من يابس الغصون وخلق الإنسان [illegible] من حمإٍ مسنون وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون.

[illegible] بقدرته الأشياء وتوالت برحمته الآلاء وانشقت بحكمته [illegible] والسماء، وكتب بمشيئته السعادة والهناء فيرحم من عباده من يشاء [illegible]. الشافى صدور أولى الألباب النافى باتقان مصنوعاته كل [illegible] ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر [illegible]﴾[1].

[illegible] حكمته أصناف المبتدعات، وقدر الأشياء من ماضٍ وآت وغفر [illegible] الخطيئات ﴿وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون﴾[2] مبدع الدهور بالأحداث ومصور الذكور والإناث [illegible] من فى القبور فينهضون بالانبعاث ﴿ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾[3].

(1) سورة [illegible] الآية ٢٠. (2) سورة الشورى الآية ٢٥.
(3) سورة [illegible] الآية ٥١.

﴿وجعل الشمس سراجًا﴾[1] ﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا﴾[2]. ﴿ولو نشاء لجعلناه أجاجًا فلولا تشكرون﴾[3].

الكريم الشكور الرحيم الغفور المنزه فى أقضيته عن أن يظلم أو يجور ﴿الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾[4]. مالك الأشياء بالطول والعرض وقبل من عباده السنن والفرض وإليه المآب والعرض. ﴿وله من فى السماوات والأرض كل له قانتون﴾[5].

أتقن خلق الإنسان وأبدع وركب فيه حركاته وأودع ﴿وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع. قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾[6]. أوضح سبيل الرشاد وبين مسالكه، وأسبغ على العباد نعمه المتداركة ونور وجوه الموحدين فهى مسفرة ضاحكة ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة. هذا يومكم الذى كنتم توعدون﴾[7]!!.

أرسل من المعصرات الماء إلى الأرض، وأنزل وأسبغ بفضله الآلاء، وحول وقضى على خلقه بما شاء وأجزل. ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾[8]. أتقن صنعة خلق العالم وأحكم وجاد عليهم بفائض رزقه، وأنعم ويدرك بهم السر المكنون المبهم ﴿لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾[9]. رب المشرقين ورب المغربين ومنوّر الكون بالنيرين ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾[10] أفاض على أوليائه من جزيل نعمائه فضلا ونوالا وأعد لأعدائه من عذابه وبالاً ونكالاً وحجبهم

(1) سورة نوح الآية ١٦. (2) سورة النبأ الآية ١٤.
(3) سورة الواقعة الآية ٧٠. (4) سورة الأنعام الآية١.
(5) سورة الروم الآية ٢٦. (6) سورة الأنعام الآية ٩٨.
(7) سورة الأنبياء الآية ١٠٣. (8) سورة الأنبياء الآية ٢٣.
(9) سورة النحل الآية ٢٣. (10) سورة الذاريات الآية ٤٩.

عن إدراكه فلا يتوهمون له شبيها ولا مثالا ﴿**سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾(١) .

ليس كمثله شيء ولا لنشر فضله طيّ ولا يعتري المهتدى إلى سبيله فيّ . . . ﴿**يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون**﴾(٢) أحمده حمدا يتقرب به المتقربون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنفع قائلها يوم لا ينفع مال ولا بنون .

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله النبى العربى الأمين المأمون . . . صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون .

وبعد : فهذه ذكرى وعبر، والذكرى تنفع المؤمنين .

فصل

إياك والجبن وكن شجاعًا واعلم بأنه لا يملك الروح والرزق إلا الله تعالى

وعن هذا الداء الخطير وهو الجبن نقتطف كلمات للإمام الشيخ محمد عبده :

يقول رحمه الله تعالى : ما العلة فى إخلاد الجمهور الأعظم من بنى الإنسان إلى دنيات المنازل وقصورهم عن الوصول إلى ما أعدته لهم العناية ويستفزهم إليه الميل الغريزى خصوصًا وإن كانت النفوس مؤمنة بعدل الله مصدقة بوعده ووعيده ترجو ثوابًا على الباقيات الصالحات وتخشى عقابًا على ارتكاب الخطيئات . . . وتعترف بيوم العرض الأكبر

(١) سورة النحل الآية ١ .

(٢) سورة الروم الآية ١٩ .

يوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره**﴾(١) .

ماذا يقعد بالنفوس عن العمل الصالح ؟

مَاذا ينحدر بها فى مزالق الزلل ؟

إذا ردت المسببات إلى أسبابها وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها : وجدنا لهذا علة هى أم العلل، ومنشأ يقرن به كل جلل وهو (الجبن) . . «وعن أضرار الجبن» قال : «الجبن هو الذى أوهى دعائم الممالك فهدم بناءها» .

هو الذى قطع روابط الأمم فحل نظامها . هو الذى أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم، وأضعف قلوب العالمين فسقطت بروجهم وهو الذى يغلق أبواب الخير فى وجوه الطالبين ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين.

يسهل على النفوس احتمال المذلة، ويخفف عليها مضض المسكنة، ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل، يوطن النفس على تلقى الإهانة بالصبر والتذليل وبالجلد ويوطئ الظهور الجاثية لأحمال المصاعب أثقال مما كان يتوهم عروضه عند التحلى بالشجاعة والإقدام .

والجبن : يلبس النفس عارًا عند كل روح زكية وهمة عالية.

والجبن : مرض من الأمراض الروحية يذهب بالقوة الحافظة للوجود التى جعلها الله ركنا من أركان الحياة الطبيعية . وله أسباب كثيرة لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا جميعها يرجع إلى الخوف من الموت.

والموت: مآل كل حى ومصير كل ذى روح.

ليس للموت وقت يعرف ولا ساعة تعلم، ولكنه فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر فى كل لحظة ولا يعلمه إلا مقدر الآجال . . جل

(١) سورة الزلزلة الآية [٧ ، ٨].

...رى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض
...ـد الخوف من الموت إلى حد يورث النفس هذا المرض
...الغفلة عن المصير المحتوم والذهول عما أعده الله للإنسان
... وسعادة الآخرة إذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت

... الإنسان عن نفسه فيظن ما جعله الله واقيًا للحياة وهو
...ـدام. مسببًا فى الفناء يحسب الجاهل أن فى كل خطوة
أن فى كل خطوة خطرًا مع أن نظرة واحدة لما بين يديه من
وما ناله طلاب المعالى من الفوز بآمالهم، وما ذللوا من
...رهم تكشف له أن تلك المخاوف إنما هى أوهام وأصوات
شياطين. غشيته فأدهشته، وعن سبيل الله صدته ومن

تنصبه صروف الدهر وغوائل الأيام لتغتال به نفوس
...ـه الأمم والشعوب. هو حبالة الشيطان يصيد بها عباد الله
...ـبيله.

...كل رذيلة ومنشأ لكل خصلة ذميمة لا شقاء إلا وهو مبدأه
... جرثومته ولا كفر إلا وهو باعثه وموجبه.

...ـاعات ومقطع روابط الصلات، هازم الجيوش ومنكس
السلاطين من سماء الجلالة إلى أرض المهانة!

... الذى يحمل الخائنين على الخيانة فى الحروب كما أنه
أيدى الأولياء لدنيئة الارتشاء، وأن الخوف من الفقر
إلى الخوف من الموت وهو علة الجبن.

... وشنار على كل ذى فطرة إنسانية. خصوصًا الذين
...ـوله واليوم الآخر ويؤمنون أن ينالوا جزاء أعمالهم أجرًا
...ـمًا.

... ٣٤.

واجب المسلمين

وعن واجب المسلمين قال: (ينبغى أن يكون أبناء الملة الإسلامية بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجبن) فإنها أشد الموانع عن أداء ما يرضى الله وأنهم لا يبتغون إلا رضاه.

يعلم قراء القرآن أن الله قد جعل حب الموت: علامة الإيمان، وامتحن به الله قلوب المعاندين يقول فى ذم من ليسوا بمؤمنين: **﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾**[1].

الإقدام فى سبيل الحق وبذل الأموال والأرواح فى إعلاء كلمته، أوسمة يتسم بها المؤمنون. لم يكتف الكتاب الإلهى بأن تقام الصلاة وتؤتى الزكاة وتكف الأيدى، وعدّ ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون والمنافقون، بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح فى إعلاء كلمة الحق والعدل الإلهى بل عده الركن الوحيد الذى لا يعتد بغيره عند فقده. لا يظن أنه يمكن الجمع بين الدين الإسلامى وبين الجبن فى قلب واحد.

كيف يمكن هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الإقدام، وأن عماده الإخلاص لله والتخلى عن جميع ما سواه لاستحصال رضاه. المؤمن من يؤمن أن الآجال بيد الله يصرّفها كيف يشاء، ولا يفيد التباطؤ عن الفروض زيادة فى الأجل ولا ينقصه الإقدام دقيقة منه.

المؤمن من لا ينتظر بنفسه إلا إحدى الحسنيين إما أن يعيش سيدًا عزيزا وإما أن يموت مقربًا سعيدًا. وتصعد روحه إلى أعلى عليين ويلتحق بالأكرمين والملائكة المقربين.

---

(١) سورة النساء الآية ٧٧.

...لوا وهم قد رأوا ما عاناه من مصاعب الحياة خلال ثلاث وعشرين ... متتابعة، لاقى فيها من الشدائد ما تنوء الجبال عن حمله فى شتى ...ل الحياة. وأى موقف أشد من موقفه (يوم أحد) .. حين ولى المسلمون وسار وهو يصعد الجبل ورجال قريش يشتدون فى تتبعه ...مونه، حتى كسرت رباعيته.

وأى موقف أشد هولا من موقعة (يوم حنين) حين ولى المسلمون ... عماية الصبح مولية الأدبار وهو ينادى فى المسلمين (إلى أين ..؟ أين .. ؟ إلىّ ... إلىّ ...) حتى عادوا وحتى انتصروا.

وأى مجهود أشق من مجهود الرسالة والوحى، وهذا المجهود ...حى المضنى فى اتصاله بسر الكون والملأ الأعلى ؟ **﴿يا أيها المزمل . ... الليل إلا قليلاً . نصفه أو انقص منه قليلاً . أو زد عليه ورتل القرآن ...رتيلاً . إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً . إن ناشئة الليل هى أشد وطئًا وأقوم ...﴾**[1].

وهذا المجهود فى تلقى أوامر الله والذى روى بسببه عن النبى ﷺ ...قال: (شيبتنى هود وأخواتها) .. قيل: وما شيبك فيهما قال: قوله ... **﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا . إنه بما تعملون ...﴾**[2].

رأى أصحاب رسول الله ﷺ هذا كله، ورأوه يحمل العبء صلبا ... لا يعرف المرض إليه طريقًا فإذا مرض بعد ذلك: فمن حق أصحابه ...خافوا وأن يتمهلوا فى السير من معسكرهم (بالجرف) إلى الشام حتى ... نفوسهم إلى ما يكون من أمر الله فى نبيه ورسوله ﷺ.

وهذا حادث وقع جعلهم أشد خوفًا: فقد استيقظ رسول الله ﷺ ... ما بدأ يشكو وطال أرقه وحدثته نفسه أن يخرج فى ليل تلك الأيام

(1) سورة المزمل الآيات [١ :٦].
(2) سورة هود الآية ١١٢.

الرقيقة النسيم فيما حول المدينة .. وخرج ولم يستصحب معه أحدًا إلا مولاه (أبا مويهبة).

أفتدرى أين ذهب؟

ذهب إلى (بقيع الغرقد) حيث مقابر المسلمين على مقربة من المدينة فلما وقف بين المقابر قال يخاطب أهلها:(هنيئًا لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه أقبلت الفتن تقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها والآخرة شر من الأولى).

وقد حدث «أبو مويهبة» أن النبى ﷺ قال له أول ما بلغا (بقيع الغرقد): (إنى أمرت أن استغفر لأهل هذا البقيع .. فانطلق) فلما استغفر لهم وآن له أن يؤوب: أقبل على «أبى مويهبة» فقال له:

(يا أبا مويهبة: إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلود فيها، ثم الجنة فخيرت بين ذلك بين لقاء ربى والجنة).

قال أبو مويهبة: بأبى أنت وأمى فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة.

قال سيدنا رسول الله ﷺ: (لا والله يا أبا مو يهبة لقد اخترت لقاء ربى والجنة).

أصبح رسول الله ﷺ فى الغداة، ومر بعائشة -رضى الله عنها- فوجدها تشكو صداعًا فى رأسها وتقول: وارأساه! فقال لها: وقد بدأ يحس ألم المرض: بل أنا والله يا عائشة .. وارأساه!.

لكن شكواه لم يكن قد اشتد إلى الحد الذى يلزمه الفراش أو يحول بينه وبين ما عود أهله وأزواجه من تلطف.

وكررت عائشة - -رضى الله عنها- - الشكوى من صداعها حين سمعته يشكو به فقال لها:(وما لو مت قبلى، فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك)؟ .

وأثارت هذه الملاحظة حب الحياة فى نفس عائشة -رضى الله عنها-

فأجابت: (وليكن ذلك حظ غيرى! والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك: لقد رجعت إلى بيتك فأعرست فيه ببعض نسائك). وتبسم النبى ﷺ.

فلما سكن عنه الألم بعض الشىء: قام بتفقد حال أهله، لكن الألم جعل يعاوده، فتزداد به شدته حتى إذا كان فى بيت أم المؤمنين (ميمونة بنت الحارث) -رضى الله عنها- لم يطق، فغالبه الألم ورأى نفسه فى حاجة إلى تمريض.

هنالك دعا نساءه إليه فى بيت ميمونة واستأذنهن بعد أن راين حاله أن يمرض فى بيت عائشة وأذن له أزواجه فى الانتقال.. فخرج عاصبًا رأسه يعتمد فى مسيرته على (على بن أبى طالب) -كرم الله وجهه- وعلى عمه (العباس) وقدماه لا تكادان تحملانه حتى دخل بيت (عائشة) -رضى الله عنها- وزادت به الحمى فى الأيام الأولى من مرضه حتى لكان يشعر كأن به منها لهبًا.

لكن ذلك لم يكن يمنعه ساعة تنزل به الحمى من أن يمشى إلى المسجد ليصلى بالناس. وظل على هذا عدة أيام لا يزيد على الصلاة ولا يقوى على محادثة أصحابه ولا خطابهم.

ولما اشتدت عليه الحمى أمر أزواجه أن يصببن عليه بعض قرب الماء.. ففعلن ذلك ثم قام فلبس ثيابه وعصب رأسه وخرج إلى المسجد وجلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على أصحاب (أحد) واستغفر لهم وأكثر من الصلاة عليهم ثم قال: (أيها الناس أنفذوا بعث «أسامة» فلعمرى لئن قلتم فى إمارته لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله وإنه لخليق للإمارة وإن كان أبوه لخليقًا لها). ثم سكت هنيهة خيم الصمت على الناس أثناءها ثم عاد إلى الحديث فقال: (إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده.. فاختار ما عند الله)!!.

وسكت الرسول ﷺ من جديد، والناس كأنما على رؤوسهم الطير.. ولكن أبا بكر -رضى الله عنه- أدرك أن النبى ﷺ إنما يعنى

بهذه العبارة الأخيرة نفسه، فلم يستطع لرقة وجدانه وعظيم صداقته لرسول الله ﷺ أن يمسك عن البكاء فأجهش وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا!.

وخشى رسول الله ﷺ أن تمتد عدوى التأثر من أبى بكر إلى الناس فأشار إليه قائلاً: (على رسلك!!) ثم قال: (إنى لا أعلم أحدًا كان أفضل فى الصحبة عندى يدًا منه وإنى لو كنت متخذًا من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده).

ونزل الرسول ﷺ عن المنبر يريد أن يعود بعد ذلك إلى بيت عائشة على أنه لم يلبث أن التفت إلى الناس وقال: (يا معشر المهاجرين: استوصوا بالأنصار خيرًا فإن الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد وإن كانوا عيبتى «يعنى خاصتى وموضع سرى» التى أويت إليها فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم).

ودخل رسول الله ﷺ بيت عائشة رضى الله عنها. أى مجهود بذل فى هذا اليوم ؟..

إنه الرسول الذى يشغله أكبر الشواغل. جيش «أسامة».. ومصير الأنصار من بعده.. ومصير هذه الأمة التى ربط الإسلام بأقوى الأواصر وأمتن الروابط بينها. لذلك حاول أن يقوم فى غده ليصلى بالناس إمامًا كعادته فإذا هو لا يقدر إذ ذاك قال: (مروا أبا بكر فليصلّ بالناس).

قالت عائشة: إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن قال رسول الله ﷺ:

(مروه فليصلّ بالناس).

فكررت عائشة -رضى الله عنها- وقالت: فلو أمرت عمر؟ فصاح رسول الله ﷺ والمرض يهزه: إنكن صواحب يوسف: مروه فليصلّ بالناس، وقام أبو بكر فصلى بالناس إملمًا !!.

وبلغت بالرسول ﷺ شدة المـرض حدًا أله ذلك أن الحمى زادت به حتى لقد كانت عـليه قطيفة فإذا وضع أزواجه وعواده أيديـهم من فوقها شعروا بحر هذه الحمى المضنية.

وكانت ابنته فاطمة تعوده كل يوم وكان يحبها .. ذلك الحب الذى يمتلئ به وجود الرجل للابنة الوحـيدة الباقية له من كل عـقبه... لذلك كانت إذا دخلت على النبى ﷺ قام إليها وقبلها وأجلسـها فى مجلسه!!

فلما بلغ منه المرض هذا المبلغ: دخلت عليه فقبلته فقال: (مرحبًا يا ابنتى ..) ثم أجلسها إلى جـانبه وأسر إليها حديثًا فـبكت ثم أسرَّ إليها حديثا آخر فضحكت.. فسألتها عائشة فى ذلك، فقالت: ما كنت أفشى سر رسول الله ﷺ .. فلمـا مات ذكرت أنه أسرَّ إليها أنه سـيقبض فى مرضه هذا فبكت، ثم أسرَّ إليها أنها أول أهله يلحقه فضحكت!!.

وكانوا لاشتداد الحمى به يضعون إلى جواره إناءً باردًا من ماء بارد، فما يزال يضع يده فيه، ويمسح بها على وجهه ﷺ.

وكانت الحمى تصل به حتى يغشى عليـه أحيانًا ثم يفيق وهو يعانى منها أشد الكرب.. حـتى قالت فاطمة يومًا وقد هز الألم نفـسها لشدة ألم أبيها .. واكرب أبتاه!

فقال: (لا كرب على أبيك بعد اليوم)!

يريد أنه سـينتقل من هذا العـالم: عالم الأسى والألم إلى الرفـيق الأعلى من الجنة.

وتناقل الناس مـا بلـغ من اشتـداد المرض بـالنبى ﷺ حـتى هبط «أسامـة» وهبط الناس مـعه من (الجـرف) إلى المدينة ودخل أسامـة على النبى ﷺ فى بيت عـائشة -رضى الله عنهـا- فإذا هو قـد أصمـت فلا يتكلم، فلمـا أبصر أسامـة جعل يرفع يده إلى السـمـاء ثم يضعـهـا على أسامة علامة الدعاء له.

المال الذى تركه النبى ﷺ: ومما أثر عنه ﷺ أنه كان فى بيـته سبعة

دنانير أول ما اشتد به المرض خاف أن يقبضه الله إليه وما تزال باقية عنده .. فأمر أهله أن يتـصدقوا بها.. لكن اشتـغالهم بتمريضـه والقيام على خدمته واطراد المرض فى شدته أنساهم تنفيذ أمره.

فلما أفاق يوم الأحـد الذى سبق وفاته من إغمائه سـألهم: مافعلوا بها؟ فـأجابت عـائشة: إنهـا ما تزال عندها فطلب إليـهـا أن تحـضرها. ووضعها فى كفه ثم قال: ما ظن محمد بربه لو لقى الله وعنده هذه؟!! ثم تصدق بها جـميعًا على فقـراء المسلمين. وقضى رسول الله ﷺ ليله هادئا مطمئنًا نزلت عنه الحمى.

وبلغ من ذلك أن اسـتطاع أن يخـرج ساعـة الصـبح إلى المسجـد عاصبًـا رأسه معتـمدًا على (على بن أبى طالب) و(الفضل بن الـعباس) -رضى الله عنهما-.

وكان أبو بكر ساعتئذ يصلى بالناس. فلما رأى المسلمون النبى ﷺ وهم فى صلاتهم قـد خرج إليهم: كادوا يفـتنون فرحًا به فتـفرجوا (أى وسعوا).. فأشار إليهم أن يثبتوا على صلاتهم. وسر رسول الله ﷺ بما رأى من ذلك أكبر سرور واغتبط له أعظم الغبطة.

وأحس أبو بـكر -رضى الله عنه- بما صـنع الناس وأيقن أنـهم لم يفعلوه إلا لرسول الله ﷺ فنكص عن مصلاه يريد أن يتخلى لرسول الله ﷺ عن مكانه. فدفعـه الرسول ﷺ وقال له: (صلِّ بالناس) وجلس هو إلى جنب أبى بكر -رضى الله عنه- فصلى قاعدًا عن يمينه.

فلما فرغ من صلاته: أقبل على الناس رافعًا صوته حتى سمعه من كان خارج المسجد فقال: (أيها الناس: سعرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم وإنى والله ما تمـسكون على بشىء: إنى والله لم أحل إلا ما أحل القرآن ولا أحـرم إلا ما حرم القرآن لـعن الله قومًا اتخذوا قـبورهم مساجد).

ولقد عظم فرح المسلمين بما رأوا من مظاهر التـقدم فى صحة النبى

[illegible] ـمة بن زيد يستأذن فى مسيرة الجيش إلى الشام
[illegible] قائلاً: يا نبى الله إنى أراك قد أصبحت بنعمة
[illegible] واليوم يوم (بنت خارجة) يعنى زوجته، أفتأذن؟
[illegible] ﷺ [illegible] ـك. وانطلق أبو بكر إلى السنح (مكان بأطراف
[illegible] ـه وانصرف عمر وعلى لشئونهما، وتفرق
[illegible] مستبشر بعد أن كانوا إلى أمس عابسين مغمومين
[illegible] النبى ﷺ ومرضه واشتداد الحمى به وإغمائه.
[illegible] عائشة والسرور لرؤية هؤلاء المسلمين الذين قد
[illegible] قلبه وإن كان يحس جسمه ضعيفًا غاية الضعف
[illegible] هذا الرجل العظيم التى يمتلئ قلبها إكبارًا له
[illegible] ـفاق لترد إليه القوة والحياة!!.
[illegible] ﷺ إلى المسجد لم يكن إلا الصحو الذى يسبق
[illegible] بعد دخوله إلى البيت فى كل لحظة ضعفًا وكان
[illegible] ـق لديه ريب فى أنه لم يبق له فى الحياة إلا

[illegible] ـيات: إنه ﷺ دعا فى هذا اليوم القائظ من يوم
[illegible] بإناء فيه ماء بارد كان يضع يده فيه ويمسح به
[illegible] ـن آل أبى بكر -رضى الله عنه- دخل على عائشة
[illegible] وفى يده سواك فنظر إليه رسول الله ﷺ نظرًا دل
[illegible] ـيه أم المؤمنين عائشة -رضى الله عنها- من هذا
[illegible] لان وأعطته إياه فاستن به.
[illegible] النزع: توجه إلى الله يدعو: (اللهم أعنى على
[illegible] !! قالت عائشة -رضى الله عنها- وكان رأس النبى ﷺ
[illegible] فى حجرها: وجدت رأس رسول الله ﷺ يثقل
[illegible] نظر فى وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول:

(بل الرفيق الأعلى من الجنة) قلت: خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق)!!.

وقبض رسول الله ﷺ:

دفن الرسول ﷺ اختار الرسول ﷺ الرفيق الأعلى، وفوجئ المسلمون بهذا النبأ الأليم وهم بالمسجد فقد رأوه ﷺ فى الصباح وكل شيء يدل على أنه عوفى.. مما جعل أبا بكر يذهب إلى زوجه (بنت خارجة) بالسنح! لذلك أسرع عمر -رضى الله عنه- إلى حيث كان جثمان النبى ﷺ وهو لا يصدق أنه مات.. ذهب فكشف عن وجهه ﷺ فألفاه لا حراك به فحسبه فى غيبوبة لابد أن يفيق منها.

وعبثًا حاول (المغيرة بن شعبة) إقناعه بالحقيقة الأليمة.. فقد ظل مؤمنًا بأن رسول الله ﷺ لم يمت فلما ألح (المغيرة) عليه قال له عمر: كذبت!! وخرج معه إلى المسجد وهو يصيح: ان رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران.. فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل إنه مات والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى عليه السلام فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه قد مات.

واستمع المسلمون بالمسجد إلى هذه الصيحات من جانب عمر -رضى الله عنه- يرسل الواحدة تلو الأخرى، وهم فى حال أشبه شيء بالذهول.. الا إن كان محمد قد مات حقًا! فواحر قلباه! وياللهم الناصب لأولئك الذين رأوه وسمعوا له وآمنوا بالله الذى بعثه بالهدى ودين الحق.. هم يذهل القلب ويذهب باللب.

أما إن كان محمد قد ذهب إلى ربه كما يقول عمر - فذلك أدعى للذهول.. وانتظار أوبته حتى يرجع كما رجع موسى: أشد إمعانًا فى العجب!!.

لذلك أحاطت جموعهم بعمر -رضى الله عنه- وهم أدنى إلى

جنبات نفسه
ﷺ وظله . .
بعـد الهداية

داه وإرشاده
يوم الهجرة

نى وراء هذا
مرور نسـمة

وينظر فـوقه

ول المصاب .
العـزة حيث
هم الخالدون .
مون﴾[1] .

وأخلص العمل . . فإن النا
وخفف الحمل . . فإن العق
لقد مات خـير خلق الله و
الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .
لقد انتقل سيد المرسلين ص
واعمل للدنيا بقدر مقامك
واعمل للآخرة بقدر بقائك
واعمل للجنة بقدر اشتياقك
واعمل للنار بقدر صبرك عا
واعلم بأن من أراد مؤنسًا :
ومن أراد حجة فالقرآن يكفي
ومن أراد الغنى فالقناعة تكف
ومن أراد واعظًا . . فالموت
ومن لم يكفه شيء من هذا

زيـــا

﴿يا أيهـا النـاس اتقـوا ربك
ترونها تذهل كـل مرضعـة عما أ
وترى الناس سكارى وما هم بسك
اعلم أخى أن القبر أول درج
فعندما يموت العبد فإنه يضع
يدخل عالم البرزخ .
وعالم البرزخ : محيط أعنف

(1) سورة الحج الآيتان [1 ، 2] .

تصديقه وإلى الإيمان بأن
فكيف يموت وقد ك
الجـهورى وإلى دعـائه و
اصطفـاه لتـبليغ رسالـته
(كسرى) وأن يدين له (ه
وكيف يموت وهـو
متوالية وأحدثت فيه أعنف
النساء هناك مـارلن
ههنا بالمسـجد ما فـتئ ي
موسى بن عمران ، وبأن
المنافقون الذيـن سيضرب
!! .
أى الأمرين يصدق
لقد أخذهم الفزع أ
عنه- تبعث إلى نفـوسهم
أمانيهم ويصورون منها لأ
وإنهم لكذلك : إذ
الفادح وبصـر بالمسلمين
إلى شيء ، بل قصد إلى
فألفى النبى ﷺ مسـجى فى ناحية من البيت عليه برد حبـرة فأقبل حتى كشف عن وجهه ثم أقبل عليه يقبله وقال : ما أطيبك حيًا . . وما أطيبك ميتًا . . !!

ثم إنه أخـذ رأس النبى ﷺ وسلم بين يديـه وحدق فى مـعـارف وجهه وقال : (بأبى أنت وأمى ! أما الموتة التى كـتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدًا) .

س الشـريف إلى الوسادة ورد البرد على وجهـه وخرج
لم الناس ويقـنعهم بأن رسول الله ﷺ لـم يمت وفسح
رضى الله عنه- طريقًا . .
عـمر ناداه : على رسلك يا عـمر ! أنصت ! لكن عـمر
ينصت واستمـر يتكلم فأقبل أبو بكر -رضى الله عنه-
إليهم بأنه يكـلمهم . . . ومن . . كـأبى بكر فى هذا
الصـديق صفى النبى ﷺ ومن لو تخـذ النبى خليلاً
ليلاً .
الـناس إلى تلبية دعـوته وانصرفـوا إليه عن عـمر .
ليه ثم قال :
من كان يعبـد محمدًا فإن محمـدًا قد مات ومن كان
حى لا يموت) . ثم تلا قوله تعالى : ﴿وما محمد إلا
ن قبله الرسل أفإن مـات أو قتل انقلبتم على أعـقابكم
قبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزى الله الشاكرين﴾[1] .
-رضى الله عنه- قد أنصـت حين رأى انصراف الناس

با بكر يتلو هذه الآية : خـر إلى الأرض . . ما تحـمله
سـول الله ﷺ قد مات . . وأما الناس فـقد أخذوا من
قبل بأقوال عمر -رضى الله عنه- حتى لقـد ألفوا أنفسهم إذ سمعوا هذه
الآية يتلوها أبو بكر كأنهم لم يكونوا يعلمون أنها نزلت . . وكذلك زايل
القلوب كل شيء ف
قد قبضه إليه !! . أ
دعا الناس إلى مثل
كـلا ! . .

ى أن محمدًا قـد اختار جوار الرفيق الأعلى ، وأن ال
فكان عمـر غاليًا حين اقتنع بأن محمدًا لم يمت وحي
اقتناعه ؟ . .

(1) سورة آل عمران الآية
. ١٤٤

قال جل شأنه: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت.. قال رب ارجعون . لعلى أعمل صالحًا فيما تركت . كلا إنها كلمة هو قائلها،ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾[1]. والبرزخ هنا: هو الحاجز الزمانى الذى يفصل ما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾[2]. هذه الآية الكريمة جمعت الأزمان الثلاثة فى جلال وجمال . . . جمعت الآزال والآماد والآباد!.

﴿يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث .. فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم .. ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم.. ومنكم من يتوفى .. ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة .. فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت، وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحى الموتى وأنه على كل شىء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور﴾[3].

نداء القبر

أتدرى - يا ابن آدم - ماذا يقول القبر بلسان حاله؟ إنه يناديك ويخاطبك بكلمات ينفطر لها القلب وينخلع من هولها الفؤاد.

روى عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة ، فجلس إلى قبر منها فقال: ما يأتى على هذا القبر يوم إلا وهو ينادى بصوت ذلق طلق: يا ابن آدم: نسيتنى الم تعلم أنى بيت الوحدة؟ وبيت الغربة؟ وبيت الوحشة؟ وبيت الدود؟ وبيت الضيق؟ إلا

(1) سورتا المؤمنون الآيتان [٩٩ ، ١٠٠].   (2) سورة البقرة الآية ٢٨.

(3) سورة الحج الآيات [٥ : ٧].

من وسعنى الله عليه؟ قال رسول الله ﷺ: «القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار»- رواه الطبرانى.

ولقد ركز رسول الله ﷺ تركيزًا قويًا على هذه الحقيقة العليا، وهى ذكر الموت، كما أخبرنا بذلك عبد الله بن عمر -رضى الله عنهما- قال:

أتيت النبى ﷺ عاشر عشرة، فقام رجل من الأنصار فقال:

يا نبى الله: من أكيس الناس، وأحزم الناس؟ قال: أكثرهم ذكرًا للموت وأكثرهم استعدادًا للموت أولئك الأكياس. . ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة» - رواه ابن أبى الدنيا.

وفى رواية ابن ماجه، لفظه: «أن رجلاً قال للنبى ﷺ: أى المؤمنين أفضل؟ قال: أحسنهم خلقًا. قال فأى المؤمنين أكيس؟ قال: أكثرهم للموت ذكرًا، وأحسنهم لما بعده استعدادًا. . أولئك هم الأكياس). ولقد قلت لنفسى وأنا بين المقابر:

هل رأيت الأمن والراحة إلا فى الحفائر؟

فأشارت فإذا للدود عبث فى المحاجر

ثم قالت: أيها السائل إنى لست أدرى

انظرى : كيف تساوى الكل فى هذا المكان

وتلاشى فى نفايا العبد رب الصولجان!

والتقى العاش والغالى . . فما يفترقان!

أفهذا منتهى الأمر؟ فقالت: لست أدرى

أيها القبر تكلم وأخبرينى يا رمام.

هل طوى أحلامك الموت وهل مات الغرام

من هو الميت . . من عام . . ومن مليون عام

أتمنى: أننى أدرى: ولكن لست أدرى.

حكمة زيارة القبور

زيارة القبور مستحبة للرجال:

لما رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن عبد الله بن بريدة عن أبيه: أن النبى ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها. فإنها تذكركم الآخرة».

وكان النهى ابتداء، لأنهم كانوا لا يتورعون فيه عن هجر الكلام وفحشه فلما دخلوا فى الإسلام واطمأنوا به وعرفوا أحكامه.. أذن لهم الشارع بزيارتها. وعن أبى هريرة -رضى الله عنه-: أن النبى ﷺ زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله. فقال النبى ﷺ: «استأذنت ربى أن استغفر لها فلم يؤذن لى واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لى فزوروها فإنها تذكر الموت» - رواه أحمد ومسلم وأهل السنن إلا الترمذى.

صفة الزيارة الشرعية

إذا وصل الزائر إلى القبر: استقبل وجه الميت وسلم عليه ودعا له.. وقد جاء فى ذلك: عن بريدة قال: كان النبى ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون.. أنتم فرطنا ونحن بكم تبع ونسأل الله لنا ولكم العافية» - رواه مسلم وأحمد وغيرهما.

وعن ابن عباس: أن النبى ﷺ مرّ بقبور المدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال: «السلام عليكم يا أهل القبور.. يغفر الله لنا ولكم.. أنتم سلفنا ونحن بالأثر» - رواه الترمذى.

وعن عائشة -رضى الله عنها- قالت: «كان النبى ﷺ كلما كان ليلتها يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون، غدًا مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون.. اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد» - رواه مسلم.

وروى عنها قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله، قال:

«قولى: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمتأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون».

وأما ما يفعله بعض من لا علم لهم من التمسح بالأضرحة وتقبيلها والطواف حولها، فهو من البدع المنكرة التى يجب اجتنابها ويحرم فعلها.

فإن ذلك خاص بالكعبة. زادها الله شرفًا: ولا يقاس عليها قبر نبى ولا ضريح ولى، الخير كله فى الاتباع والشر كله فى الابتداع.

قال ابن القيم:

كان النبى ﷺ إذا زار القبور يزورها للدعاء لأهلها، والترحم عليهم والاستغفار لهم فأبى المشركون إلا دعاء الميت والإقسام على الله به وسؤاله الحوائج والاستعانة به والتوجه إليه.. بعكس هديه ﷺ.. فإنه هدى توحيد، وإحسان إلى الميت، وهدى هؤلاء شرك وإساءة إلى نفوسهم وإلى الميت.

وهم ثلاثة أقسام: إما أن يدعوا للميت، أو يدعو ربه، أو عنده. ويرون أن الدعاء عنده أولى من الدعاء فى المساجد. ومن تأمل هدى رسول الله ﷺ وأصحابه تبين له الفرق بين الأمرين.

ما ينفع الميت من الأعمال

من المتفق عليه أن الميت ينتفع بما كان سببًا فيه من أعمال البر فى حياته: لما رواه مسلم وأصحاب السنن عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد بار يدعو له» - رواه ابن ماجه.

وعنه: أنه ﷺ قال: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علمه ونشره، أو ولدًا صالحًا تركه، أو مصحفًا ورثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهرًا أكراه، أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته تلحقه من بعد موته».

وروى مسلم عن جرير بن عبد الله: أن النبى ﷺ قال: «من سن فى الإسلام سنة حسنة: فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم .. ومن سن فى الإسلام سنة سيئة: كان عليه وزرها ووزر من يعمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شىء».

ما ينفعه من أعمال غيره

- يتساءل العلامة ابن القيم فيقول:
- هل تنتفع أرواح الموتى بشىء من سعى الأحياء .. أم لا؟

ثم يجيب قائلا: إنها تنتفع من سعى الأحياء بأمرين مجمع عليهما بين أهل السنة من الفقهاء وأهل الحديث والتفسير.

أحدهما: ما تسبب إلى الميت فى حياته.

والثانى: دعاء المسلمين له واستغفارهم له، والصدقة أو الحج!

ويرى الإمام أحمد، ومعه جمهور السلف: وصول الصوم والصلاة، وقراءة القرآن، والذكر.

وقد نص على هذا: الإمام أحمد فى رواية محمد بن يحيى الكحال .. قال:

قيل لأبى عبدالله: الرجل يعمل الشىء من الخير: من صلاة أو صدقة، أو غير ذلك، فيجعل نصفه لأبيه أو لأمه؟

قال: (الميت يصل إليه كل شىء: من صدقة أو غيره) وقال أيضًا: اقرأ آية الكرسى ثلاث مرات و«قل هو الله أحد» وقل: اللهم إن فضله لأهل المقابر.

وهناك آراء أخرى فى هذه المسألة، رأينا الإمساك عن ذكرها .. تيسيرًا على القارئ.

الأدلة على ما سبق

الدليل على انتفاعه بما تسبب إليه فى حياته: ما رواه مسلم فى

صحيحه من حديث أبى هريرة -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال:

«إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». فاستثناء هذه الثلاث من عمله: يدل على أنها منه، فإنه هو الذى تسبب فيها.

وفى سنن ابن ماجه من حديث أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ «إنما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علما علمه ونشره أو ولدا صالحا تركه أو مصحفا ورّثه أو مسجدًا بناه أو بيتًا لابن السبيل بناه أو نهرًا أكراه أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته تلحقه من بعد موته».

وفى المسند عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم .. ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من يعمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء».

وقد دل على هذا: قوله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل» فإذا كان هذا فى العذاب والعقاب، ففى الفضل والثواب أولى وأحرى.

ومن الأدلة كذلك: ما نطق به القرآن الكريم وأتت به السنة المطهرة وورآه الإجماع.

أما القرآن:

فقوله تعالى: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾[1]. فأثنى الله سبحانه وتعالى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء: إجماع الأمة على الدعاء له فى صلاة الجنازة.

(١) سورة الحشر الآية ١٠.

وفى السنن:

من حديث أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء».

وفى صحيح مسلم من حديث عوف بن مالك قام النبى ﷺ على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول: «اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله وأوسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس وأبدله داراً خيراً من داره وأهلاً خيراً من أهله وزوجًا خيرًا من زوجه وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار».

وفى السنن أيضًا عن واثلة بن الأسقع قام ﷺ على رجل من المسلمين فسمعته يقول: اللهم إن فلان بن فلان فى ذمتك وحبل جوارك، فقه من فتنة القبر وعذاب النار، وأنت أهل الوفاء والحق فاغفر له وارحمه إنك أنت الغفور الرحيم».

ومن حديث عثمان بن عفان -رضى الله عنه- قال: كان النبى ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل». وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم كما فى صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصين قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . . نسأل الله لنا ولكم العافية».

وفى صحيح مسلم أن عائشة -رضى الله عنها- سألت النبى ﷺ كيف تقول إذا استغفرت لأهل القبور؟ قال: قولى: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، فيرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون» وفى صحيح مسلم أيضًا عنها -رضوان الله عليها- أن رسول الله ﷺ خرج فى ليلتها من آخر الليل إلى البقيع

فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وآتاكم ما توعدون غدا مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل الغرقد».

وقد جاء أن الله يرفع درجة العبد فى الجنة فيقول: أنى لى هذا؟ فيقال: بدعاء ولدك لك.

وصول ثواب الصدقة

عقد العلامة ابن القيم -رحمه الله تعالى- فصلاً فى ذلك فقال: وأما وصول ثواب الصدقة: ففى الصحيحين عن عائشة -رضى الله عنها- أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إن أمى افتلتت نفسها ولم توصى وأظنها لو تكلمت تصدقت، أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: «نعم».

وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن عباس -رضى الله عنهما- أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها فأتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إن أمى توفيت وأنا غائب عنها فهل ينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: نعم. قال: فإنى أشهدك أن حائطى المخراف صدقة عنها.

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة -رضى الله عنه- «أن رجلاً قال للنبى ﷺ: إن أبى مات وترك مالاً، ولم يوص فهل يكفى عنه أن أتصدق عنه؟ قال: نعم».

وفى السنن ومسند أحمد عن سعد بن عبادة أنه قال: «يا رسول الله إن أم سعد ماتت فأى الصدقة أفضل؟ قال: الماء».

فحفر بئراً وقال: هذه لأم سعد.

وعن عبد الله بن عمرو أن العاص بن وائل نذر فى الجاهلية أن ينحر مائة بدنة، وأن هشام بن العاص نحر خمسًا وخمسين، وأن عمراً سأل النبى ﷺ عن ذلك فقال: «أما أبوك فلو أقر بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك» - رواه الإمام أحمد.

وصول ثواب الصيام

قال العلامة ابن القيم رحمة الله عليه:

وأما الدليل على وصول ثواب الصوم إلى الميت فما روى فى الصحيحين عن عائشة -رضى الله عنها- أن رسول ﷺ قال: «من مات وعليه صيام: صام عنه وليه».

وفى الصحيحين أيضًا عن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: «جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله: أمى ماتت وعليها صوم شهر.. أفأقضيه عنها؟ قال: نعم.. فدين الله أحق أن يقضى».

وفى رواية: «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله: إن أمى ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ قال: أفرأيت لو كان على أمك دين فقبضته: أكان يؤدى ذلك عنها. قالت: نعم، قال فصومى عن أمك».

وهذا اللفظ للبخارى وحده تعليقًا.

وعن بريدة -رضى الله عنه- قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ أتته امرأة فقالت: إنى تصدقت على أمى بجارية، وإنها ماتت فقال: وجب أجرك وردها عليك الميراث فقالت: يا رسول الله إنه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها؟ قال: صومى عنها قالت: إنها لم تحج قط أفأحج عنها؟ قال: حجى عنها» رواه مسلم.

وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- «أن امرأة ركبت البحر فنذرت إن الله نجاها أن تصوم شهرا فنجاها الله، فلم تصم حتى ماتت فجاءت بنتها أو أختها إلى رسول الله ﷺ فأمرها أن تصوم عنها» - رواه أهل السنن والإمام أحمد.

وكذلك روى عنه ﷺ وصول ثواب بدل الصوم وهو الإطعام:

ففى السنن: عن ابن عمر -رضى الله عنهما- قال: قال رسول ﷺ «من مات وعليه صيام شهر فليطعم عنه لكل يوم مسكين» - رواه الترمذى.

قال الترمذى: ولا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه، والصحيح عن ابن عمر من قوله موقوفًا.

وفى سنن أبى دواد عن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: «إذا مرض الرجل فى رمضان ولم يصم أطعم عنه ولم يكن عنه قضاء وإن نذر: قضى عنه وليه».

وصول ثواب الحج

قال العلامة ابن القيم رحمة الله عليه:

وأما وصول ثواب الحج: ففى صحيح البخارى عن ابن عباس -رضى الله عنهما- «أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت: إن أمى نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها؟ قال: حجى عنها.

أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله فالله أحق بالقضاء».

وقد تقدم حديث بريدة وفيه: «إن أمى لم تحج قط، أفأحج عنها؟ قال: حجى عنها».

وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: «إن امرأة سنان بن مسلمة الجهنى سألت رسول الله ﷺ أن أمها ماتت ولم تحج أفيجزئ أن تحج عنها؟ قال: نعم. لو كان على أمها دين فقضته عنها ألم يكن يجزئ عنها» رواه النسائى.

وروى أيضًا عن ابن عباس -رضى الله عنهما- أن «امرأة سألت النبى ﷺ عن ابنها مات ولم يحج قال: (حجى عن ابنك).

وروى أيضًا عنه قال: «قال رجل يا نبى الله إن أبى مات ولم يحج أفأحج عنه؟ قال: أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت قاضيه؟ قال: نعم قال: فدين الله أحق».

وأجمع المسلمون على أن قضاء الدين يسقطه من ذمته، ولو كان من أجنبى أو من غير تركته.

وقد دل عليه حديث أبى قتادة حيث ضمن الدينارين عن الميت فلما قضاهما قال له النبى ﷺ الآن بردت عليه جلدته».

سـؤال القبـر

اتفق أهل السنة والجماعة: على أن كل إنسان يسأل بعد موته: قبر أم لم يقبر . .

فلو أكلته السباع أو احرق حتى صار رمادًا ونسف فى الهواء أو غرق فى البحر: ليسئل عن أعماله وجوزى بالخير: خيرًا، وبالشر: شرًا.

وأن النعيم أو العذاب على النفس والبدن معًا . . قال ابن القيم: ذهب سلف الأمة وأئمتها إلى أن الميت إذا مات يكون فى نعيم أو عذاب وإن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانًا ويحصل له معها النعيم أو العذاب.

ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى: أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين وتعاد الأبدان» متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى وقال المروزى: قال أبو عبد الله - يعنى الإمام أحمد - عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال مضل.

وقال حنبل: قلت لأبى عبد الله: فى عذاب القبر؟

فقال: هذه أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر بها . . كلما جاء عن النبى ﷺ إسناد جيد أقررنا به إذا لم نقر بما جاء به رسول الله ﷺ ودفعناه ورددناه: رددنا على الله أمره . . قال تعالى ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه﴾[1].

قلت له: وعذاب القبر حق؟ قال: حق . . . يعذبون فى القبور.

قال: وسمعت أبا عبدالله يقول: نؤمن بعذاب القبر وبمنكر ونكير

(١) سورة الحشر الآية ٧.

وأن العبد يسأل فى قبره . . . قال تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾[1] . . . فى القبر.

وقال أحمد بن القاسم: قلت: يا أبا عبدالله: تقر بمنكر ونكير وما يروى فى عذاب القبر؟ فقال: سبحان الله . . نعم . . نقر بذلك ونقر له.

قلت: هذه اللفظة تقول: منكر ونكير هكذا؟ أو تقول: ملكين؟

قال: منكر ونكير.

قلت يقولون: ليس فى حديث منكر ونكير.

قال: هو هكذا يعنى أنهما منكر ونكير.

ثم يطرح العلامة ابن القيم فى هذه القضية سؤالاً يقول فيه:

هل تعاد الروح إلى الميت فى قبره وقت السؤال أم لا؟

ويجيب قائلا: فقد كفانا رسول الله ﷺ أمر هذه المسألة وأغنانا عن أقوال الناس حيث صرح بإعادة الروح إليه: فقد قال البراء بن عازب.

كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا النبى ﷺ فقعد وقعدنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وهو يلحد له فقال: «أعوذ بالله من عذاب القبر ثلاث مرات ثم قال: «إن العبد إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا: نزلت إليه ملائكة كأن وجوههم الشمس فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة: اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من (فى) السقاء - أى فمه - فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض قال: فيصعدون بها فلا يمرون بها - يعنى على ملأ من الملائكة - إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان - بأحسن أسمائه التى كانوا

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٧.

يسمونه فى الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيـا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله تعالى فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض فإنى منها خلقتهم ومنها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى.

قال: فتعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول ربى الله فيقولان له ما دينك؟ فيقول: دينى الإسلام فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله فيقولان له: وما علمك بهذا؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت.

فينادى مناد من السماء: أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وافتحوا له بابًا من الجنة.

قال: فيأتيه من ريحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره.

قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذى يسرّك .. هذا يومك الذى كنت توعد فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير فيقول: أنا عملك الصالح فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى، قال: وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة: نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة: اخرجى إلى سخط من الله وغضب..

قال: فيتفرق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السنود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الريح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى

الدنيا حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط﴾[1].

فيقول الله عز وجل «اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى» فتطرح روحه طرحًا ثم قرأ ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق﴾[2].

فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيقولان له: من ربك؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدرى فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فأفرشوه من النار وافتحوا له بابًا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذى يسؤك هذا يومك الذى كنت توعد.

فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذى يجىء بالشر فيقول: أنا عملك الخبيث فيقول: رب لا تقم الساعة»

رواه الإمام أحمد وأبو داود.

اللهم أجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة.

نصوص نبوية صحيحة

وهذه مجموعة من الأحاديث النبوية الصحيحة نستشهد بها على صحة ما ذكرناه:

روى مسلم عن زيد بن ثابت قال: بينا رسول الله ﷺ فى حائط (الحائط هو البستان) لبنى النجار على بغلته ونحن معه إذ جادت به فكادت تلقيه، فإذا قبر ستة أو خمسة أو أربعة .. فقال: من يعرف أصحاب هذه القبور؟ فقال رجل : أنا. قال: فمتى مات هؤلاء؟ قال:

(1) سورة الأعراف الآية ٤٠.
(2) سورة الحج الآية ٣١.

مات فى الأشراط. فقال: إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها... فلولا أن لا تدافنوا: لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر: الذى أسمع منه.

ثم أقبل علينا بوجهه فقال: تعوذوا بالله من عذاب النار. قالوا نعوذ بالله من عذاب النار. قال: تعوذوا بالله من عذاب القبر. قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر. قال: تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. قال: تعوذوا بالله من فتنة الدجال قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال».

وروى البخارى ومسلم عن قتادة عن أنس أن النبى ﷺ قال: إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم. أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ لمحمد ﷺ.

فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله.

قال: فيقولان: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة.. فيراهما جميعًا.

وأما الكافر والمنافق فيقال له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول: لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس فيقولان: لا دريت ولاتليت.. ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة فيسمعها من يليه غير الثقلين. (ومعنى لا دريت .. ولا تليت): أى لا كنت داريًا ولا تاليًا.. والمقصود بها الدعاء عليه).

وروى البخارى ومسلم وأصحاب السنن عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل فى قبره فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله: فذلك قول الله **﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾**[1].

وفى لفظ: نزلت فى عذاب القبر: يقال له من ربك؟ فيقول: الله ربى ومحمد نبى فذلك قول الله **﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾**[1].

(١) سورة إبراهم الآية ٢٧.

وفى مسند الإمام أحمد وصحيح أبى حاتم أن النبى ﷺ قال:

«إن الميت إذا وضع فى قبره: إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه فإن كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه والصيام عن يمينه والزكاة عن شماله وكان فعل الخيرات «من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان» عند رجليه فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلى مدخل ثم يؤتى من يمينه فيقول الصيام: ما قبلى مدخل. ثم يؤتى من يساره فتقول الزكاة: ما قبلى مدخل. ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان: ما قبلى مدخل. فيقال: له اجلس. فيجلس وقد مثلت له الشمس وقد أخذت للغروب فيقال له: هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه؟ وماذا تشهد به عليه؟ فيقول؟ دعونى حتى أصلى فيقولان: إنك ستصلى أخبرنا عما نسألك عنه؟ أرأيتك هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه؟ وما تشهد عليه؟ فيقول: محمد أشهد أنه رسول الله جاء بالحق من عند الله فيقولان له: على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له: هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسرورا ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعًا وينور له فيه ويعاد الجسد لما بدئ منه وتجعل نسمته فى النسيم الطيب وهى طير معلق فى شجر الجنة.. قال: فذلك قول الله تعالى **﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾**[1].. وذكر فى الكافر ضد ذلك إلى أن قال:

«ثم يضيق عليه فى قبره إلى أن تختلف أضلاعه فتلك المعيشة الضنك التى قال الله تعالى: **﴿فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾**[2].

وفى صحيح البخارى عن سمرة بن جندب قال: «كان النبى ﷺ

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٧. (٢) سورة طه الآية ١٢٤.

إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال: من رأى منكم الليلة رؤيا؟ قال: فإن رأى أحد رؤيا قصها فيقول: ما شاء الله.. فسألنا يومًا فقال: هل رأى أحد منكم رؤيا؟ قلنا: لا. قال: لكنى رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخذا بيدى وأخرجانى إلى الأرض المقدسة فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب من حديد يدخله فى شدقه حتى يبلغ قفاه ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك ويلتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله قلت ما هذا؟ قالا: انطلق فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بصخرة أو فهر فيشدخ بها رأسه فإذا ضربه تدهده الحجر فانطلق إليه ليأخذ فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو فعاد إليه فضربه قلت: ما هذا؟ قالا: انطلق فانطلقنا إلى نقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يوقد تحته نار فإذا فيه رجال ونساء عراة فيأتيهم اللهب من تحتهم فإذا اقترب: ارتفعوا حتى كادوا يخرجون فإذا خمدت: رجعوا فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة فأقبل الرجل الذى فى النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه (أى فمه) فرده حيث كان فجعل كلما جاء ليخرج: رمى فى فيه بحجر فرجع كما كان فقلت ما هذا؟ قالا: انطلق فانطلقنا حتى أتينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة وفى أصلها شيخ وصبيان وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها فصعدا إلى الشجرة وأدخلانى دارًا لم أر قط أحسن منها.. فيها شيوخ وشبان ثم صعدا بى فأدخلانى دارا هى أحسن وأفضل قلت: طوفتمانى الليلة فأخبرانى عما رأيت؟ قالا: نعم: الذى رأيته يشق شدقه: كذاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيصنع به إلى يوم القيامة. والذى رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل به بالنهار يفعل به إلى يوم القيامة. وأما الذى رأيته فى النقب: فهم الزناة. والذى رأيته فى النهر: فآكل الربا.

فأما الشيخ الذي فى أصل الشجرة: فإبراهيم والصبيان حوله: فأولاد الناس.

والذى يوقد النار: فمالك خازن النار.

والدار الأولى: دار عامة المؤمنين. وأما هذه الدار فدار الشهداء.. وأنا جبريل وهذا ميكائيل فارفع رأسك.. فرفعت رأسى فإذا قصر مثل السحابة قالا: ذلك منزلك قلت: دعانى أدخل منزلى. قالا: إنه بقى لك عمر لم تستكمله فلو استكملته: أتيت منزلك»

قال ابن القيم: وهذا نص فى عذاب البرزخ فإن رؤيا الأنبياء وحى ومطابق لما فى نفس الأمر.

وروى الطحاوى عن ابن مسعود أن النبى ﷺ قال: «أمر بعبد من عباد الله أن يضرب فى قبره مائة جلدة فلم يزل يسأل الله ويدعوه حتى صارت واحدة فامتلأ قبره عليه نارًا فلما ارتفع عنه أفاق. قال: علام جلدتمونى؟ قالوا: إنك صليت بغير طهور، ومررت على مظلوم فلم تنصره» وعن أنس أن النبى ﷺ سمع صوتًا من قبر فقال: متى مات هذا؟ فقالوا: مات فى الجاهلية فسر بذلك وقال: «لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم عذاب القبر» رواه النسائى ومسلم.

وعن ابن عمر -رضى الله عنهما- عن النبى ﷺ قال: «هذا الذى تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفا من الملائكة... لقد ضم ضمة ثم فرج عنه» - رواه البخارى ومسلم والنسائى.

«تعليق»

إذا سأل سائل ما الحكمة فى كون عذاب القبر لم يذكر فى القرآن مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان به ليحذر ويتقى؟

أجاب على ذلك العلامة ابن القيم فقال: الجواب من وجهين: مجمل ومفصل.

أما المجمل: فهو أن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله وحيين وأوجب على عباده الإيمان بهما والعمل بما فيهما، وهما: الكتاب والحكمة..

قال تعالى: **﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم﴾**(١)

قال تعالى: **﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتابه والحكمة﴾**(٢). وقال تعالى: **﴿واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾**(٣).

والكتاب: هو القرآن.

والحكمة: هى السنة باتفاق السلف.

وما أخبر به الرسول عن الله: فهو فى وجوب تصديقه والإيمان به.. كما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله..

هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام لا ينكره إلا من ليس منهم.

وقد قال النبى ﷺ «إنى أوتيت الكتاب ومثله معه».

وأما الجواب المفصل: فهو فى أن نعيم البرزخ وعذابه مذكوران فى القرآن فى غير موضع.. فمنها قوله تعالى **﴿ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم.. اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾**(٤).

وهذا خطاب لهم عند الموت.

وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم: اليوم تجزون ومنها قوله تعالى: **﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب. النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾**(٥).

(١) سورة النساء الآية ١١٣. (٢) سورة الجمعة الآية ٢.
(٣) سورة الأحزاب الآية ٣٤. (٤) سورة الأنعام الآية ٢.
(٥) سورة غافر الآيات [٤٥ ، ٤٦].

فذكر عذاب الدارين ذكراً صريحاً.. لا يحتمل الشك. ومنها قوله تعالى: **﴿فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون. يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾**(١).

وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره فى الدنيا وأن يراد به عذابهم فى البرزخ وهو أظهر، لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب فى الدنيا.

وقد يقال وهو أظهر أن من مات منهم.. عذب فى البرزخ ومن بقى منهم.. عذب فى الدنيا بالقتل وغيره فهو وعيد بعذابهم فى الدنيا وفى البرزخ. ومنها قوله تعالى: **﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾**(٢).

وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم عبدالله بن عباس على عذاب القبر. وفى الاحتجاج بها شىء؛ لأن هذا عذاب الدنيا يستدعى به رجوعهم عن الكفر ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن.

لكن من فقهه فى القرآن ودقة فهمه فيه: فهم منها عذاب القبر.. فإنه سبحانه أخبر أن له فيهم عذابين: أدنى وأكبر. فأخبر أن يذيقهم بعض **«الأدنى»** ليرجعوا.. فدلّ على أنه بقى لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا ولهذا قال: **«من العذاب الأدنى»** ولم يقل **«ولنذيقنهم من العذاب الأدنى»**.

فلتأمل ذلك جيداً.. ونظيره قول النبى ﷺ: **«فيفتح له طاقة إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها»** ولم يقل: فيأتيه حرها وسمومها فإن الذى وصل إليه: بعض ذلك وبقى له أكثره. والذى ذاقه أعداء الله فى

(١) سورة الطور الآيات [٤٥ : ٤٧]. (٢) سورة السجدة الآية ٢١.

الدنيا بعض العذاب ويقى لهم: ما هو أعظم.

ومنها قوله تعالى: **﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم، وأنتم حينئذ تنظرون، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون، فلولا إن كنتم غير مدينين، ترجعونها إن كنتم صادقين، فأما إن كان من المقربين، فروح وريحان وجنة نعيم، وأما إن من كان أصحاب اليمين، فسلام لك من أصحاب اليمين، وأما ان كان من المكذبين الضالين، فنزل من حميم، وتصلية جحيم، إن هذا لهو حق اليقين، فسبح باسم ربك العظيم﴾**(١)

فذكر ههنا: أحكام الأرواح عن الموت وذكر فى أول السورة: أحكامها يوم المعاد الأكبر. وتقديم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية.. إذ هى أهم وأولى بالذكر وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام كما جعلهم فى الآخرة ثلاثة أقسام. ومنها قوله تعالى: **﴿يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعى إلى ربك راضية مرضية، فادخلى فى عبادى، وادخلى جنتى﴾**(٢)..

وقد اختلف السلف: متى يقال لها ذلك؟

فقالت طائفة: يقال لها عند الموت، وظاهر اللفظ: مع هؤلاء فإنه خطاب للنفس التى قد تجردت عن البدن وخرجت منه.

وقد فسر ذلك النبى ﷺ بقوله فى حديث البراء وغيره فيقال لها: (اخرجى راضية مرضيًا عنك) وقوله تعالى: **﴿فادخلى فى عبادى﴾** مطابق لقوله ﷺ «اللهم الرفيق الأعلى». وأنت إذا تأملت أحاديث عذاب القبر ونعيمه وجدتها تفصيلاً وتفسيراً لما دل عليه القرآن.

أسباب عذاب القبر

قال العلامة ابن القيم:

ذلك راجع إلى سببين:

مجمل ومفصل:

(١) سورة الواقعة الآيات [٨٣ : ٩٦].

(٢) سورة الفجر الآيات [٢٧ : ٣٠].

أما المجمل فإنهم يعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم لمعاصيه فلا يعذب الله روحا عرفته واحبته وامتثلت أمره واجتنبت نهيه ولا بدنا كانت فيه أبدا فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة: أثر غضب الله وسخطه على عبده فمن أغضب الله وأسخطه فى هذه الدار ثم لم يتب ومات على ذلك. كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه: فمستقل ومستكثر ومصدق ومكذب.

وأما المفصل: فقد أخبر النبى ﷺ عن الرجلين اللذين رآهما يعذبان فى قبورهما يمشى أحدهما بالنميمة بين الناس ويترك الآخر الاستبراء من البول.

فهذا ترك الطهارة الواجبة، وذلك ارتكب السبب الموقع للعداوة بين الناس بلسانه وإن كان صادقا وفى هذا تنبيه على أن الموقع بينهم العداوة: بالكذب والزور والبهتان: أعظم عذابًا كما أن فى ترك الاستبراء من البول تنبيها على أن من ترك الصلاة التى الاستبراء من البول بعض واجباتها وشروطها فهو أشد عذابًا وفى حديث شعبة (أما أحدهما: فكان يأكل لحوم الناس فهذا مغتاب وذلك نمام).

وقد تقدم حديث ابن مسعود -رضى الله عنه- فى الذى ضرب سوطًا امتلأ القبر عليه به ناراً لكونه صلى صلاة واحدة بغير طهور ومر على مظلوم فلم ينصره، وقد جاء فى صحيح البخارى عن سمرة بن جندب قال: (كان النبى ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال: من رأى منكم الليلة رؤيا ...؟ والحديث: مذكور بطوله فيما مضى فليرجع إليه من شاء ومما سبق يتبين ان عذاب القبر يكون عن معاصى القلب والعين والأذن والفم واللسان والبطن والفرج واليد والرجل والبدن كله:

فالنمام والكذاب والمغتاب وشاهد الزور وقاذف المحصن والموضع فى الفتنة والداعى إلى البدعة والقائل على الله ورسوله ما لا علم له به والمجازف فى كلامه وآكل الربا وآخذه ومعطيه وكاتبه وشاهده وآكل أموال اليتامى وآكل السحت من الرشوة والبرطيل (الرشوة) ونحوهما وآكل

مال أخيه المسلم بغير حق أو مال المعاهد وشارب المسكر وآكل لقمة الشجرة الملعونة والزانى واللوطى والسارق والخائن والغادر والمخادع والماكر والمحلل والمحلل له والمحتال على إسقاط فرائض الله وارتكاب محارمه ومؤذى المسلمين ومتتبع عوراتهم والحاكم بغير ما أنزل الله والمفتى بغير ما شرعه الله والمعين على الإثم والعدوان وقاتل النفس التى حرم الله والملحد فى حرم الله والمعطل لحقائق أسماء الله وصفاته الملحد فيها والمقدم رأيه وذوقه وسياسته على سنة رسول الله ﷺ والنائحة والمستمع إليها ونواحو جهنم وهم المغنون الغناء الذى حرمه الله ورسوله والمستمع إليهم والذين يبنون المساجد على القبور ويوقدون عليها القناديل والسرج والمطففون فى استيفاء مالهم إذا أخذوه وهضم ما عليهم إذا بذلوه والجبارون والمتكبرون والمراؤون والهمازون واللمازون والطاعنون على السلف والذين يأتون الكهنة والمنجمين والعرافين فيسألونهم ويصدقونهم وأعوان الظلمة الذين قد باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم والذى إذا خوفته بالله وذكرته به لم يرعو ولم ينزجر فإذا خوفته بمخلوق مثله: خاف وارعوى وكف عما هو فيه والذى يهدى بكلام الله ورسوله فلا يهتدى ولا يرفع به رأسًا فإذا بلغه عمن يحسن به الظن ممن يصيب ويخطئ: عض عليه بالنواجذ ولم يخالفه والذى يقرأ عليه القرآن فلا يؤثر فيه وربما استثقل به فإذا سمع قرآن الشيطان ورقية الزنا ومادة النفاق: طاب سره وتواجد وهاج من قلبه دواعى الطرب وود أن المغنى لا يسكت والذى يحلف بالله ويكذب فإذا حلف بالبندق أو برئ من شيخه أو قريبه أو سراويل الفتوة أو حياة من يحبه ويعظمه من المخلوقين: لم يكذب ولو هدد وعوقب والذى يفتخر بالمعصية ويتكثر بها بين إخوانه وإضرابه - وهو المجاهر والذى لا تأمنه على مالك وحرمتك - والفاحش اللسان البذىء الذى تركه الخلق تقاء شره وفحشه والذى يؤخر الصلاة إلى آخر وقتها وينقرها نقرًا ولا يذكر الله فيها إلا قليلاً ولا يؤدى زكاة ماله طيبة بها نفسه ولا يحج مع قدرته على الحج ولا يؤدى ما عليه من الحقوق مع قدرته عليها

ولايتورع من لحظة ولا لفظة ولا أكلة ولا خطوة ولا يبالى بما حصل من المال من حلال أو حرام ولا يصل رحمه ولا يرحم المسكين ولا الأرملة ولا اليتيم ولا الحيوان البهيم بل يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ويرائى العالمين ويمنع الماعون ويتشغل بعيوب الناس عن عيبه ويذنوبهم عن ذنبه.

كل هؤلاء وأمثالهم: يعذبون فى قبورهم بهذه الجرائم بحسب كثرتها وقلتها وصغيرها وكبيرها.

ولما كان أكثر الناس كذلك: كان أكثر أصحاب القبور معذبين والفائز منهم قليل.

فظواهر القبور: تراب وبواطنها حسرات وعذاب ظواهرها بالتراب والحجارة المنقوشة مبينات وفى باطنها الدواهى والبليات.

تغلى بالحسرات كما تغلى القدور بما فيها ويحق لها وقد حيل بينها وبين شهواتها وأمانيها. تالله لقد وعظت فما تركت لواعظ مقالا ونادت:

يا عمار الدنيا: لقد عمرتم دارًا موشكة بكم زوالاً.

وخربتم دارًا أنتم مسرعون إليها انتقالاً.

عمرتم بيوتًا لغيركم : منافعها وسكناها.

وخربتم بيوتًا ليس لكم مساكن سواها.

هذه دار الاستباق ومستودع الأعمال وبذر الزرع وهذه محل للعبر:
رياض من رياض الجنة أوحفر من حفر النار!

فضل القرآن ومدارسته

اعلم - وفقنى الله وإياك - أن حرص العبد فى الدنيا على قراءة القرآن ومدارسته وحفظه وتلاوته: خيرما ينور له قبره ويفسح له فيه.

يقول الإمام الشاطبى رحمه الله فى هذا المعنى:

وخير جليس لا يمل حديثه

وترداده يزداد فيه تجملا

وحيث الفتى يرتاع فى ظلمـــاته
من القبر يلقاه ســنا متهـــللا
هنالك يهنيه مقيـلا وروضـــة
ومن أجله فى ذروة العـــز يجتلى
يناشــد فى إرضـــائه لحبيبه
وأجدر به سؤلا إليه موصـــلا
فيا أيها القــــارى به متمســكا
مجلا له فى كل حال مبجــــلا
هنيئا مريئا والداك عليهمـــا
ملابس أنوار من التاج والحلى!

يرحم الشاطبى وجزاه الله عن القرآن خيراً.

فضـل القـــرآن وحافـــظ القـــرآن

وها نحن أولاً: نذكر نصوصًا تبين لنا فضل القرآن على أصحابه العاملين به المستمسكين بهديه السالكين على منهجه السائرين على دربه.

قال الله تبارك وتعالى: **﴿ولقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم﴾**[1].

وقال جل شأنه: **﴿بل هو قرآن مجيد﴾**[2].

وقال سبحانه وتعالى: **﴿وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾**[3].

وصح عن النبى ﷺ أنه حدث عن جبريل عليه السلام عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (من شغله قراءة كتابى عن مسألتى: أعطيته أفضل

(١) سورة الحجر الآية ٨٧. (٢) سورة البروج الآية ٢١.
(٣) سورة فصلت الآيتان [٤١ ، ٤٢].

ما أعطى الشاكرين) وفى رواية أخرى (السائلين).

وعن أنس عن النبى ﷺ أنه قال: «إن لله أهلين من الناس فقيل: من هم يا رسول الله؟

قال: أهل القرآن. هم أهل الله وخاصته»

وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- يرفعه: (أشراف أمتى: حملة القرآن وأصحاب الليل).

وعنه أيضًا يرفعه:

(من أعطى القرآن فظن أن أحدًا أعطى أفضل مما أعطى: فقد عظم ما حقر الله وحقر ما عظم الله) وقال: (من أوتى القرآن: فكأنما أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لم يوح إليه).

وسئل النبى ﷺ: من أفضل الناس؟ فقال: «الحال المرتحل قيل: ومن الحال المرتحل؟ قال: صاحب القرآن.. كلما حل ارتحل: أى كلما أتم ختمة: استأنف ختمة أخرى».

وعن على -رضى الله عنه- قال: (ذكر لرسول الله ﷺ الفتنة.. قلنا يا رسول الله: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله: فيه نبأ ما قبلكم وفصل ما بينكم وخبر ما بعدكم، وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تلتبس له الألسن ولا يزيغ به الأهواء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، ولا تنقضى عجائبه، هو الذى لم يلبث الجن إذ سمعته أن قالوا: **﴿إنا سمعنا قرآنا عجبًا﴾**[1]. من قال به: صدق ومن حكم به عدل ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم.

وعن ابن مسعود -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن مأدبة الله فى أرضه فتعلموا مأدبته ما استطعتم وإن هذا القرآن هو

(١) سورة الجن الآية ١.

حبل الله فهو نوره المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد فاقرءوه فإن الله يأجركم بكل حـرف عشر حسنات أما إنى لا أقول: آلم عشر ولكن ألف ولام وميم ثلاثون حسنة) .

وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه».

وعن أبى الدرداء -رضى الله عنه- يرفعه إلى النبي ﷺ أنه قال: «القرآن أفضل من كل شيء دون الله فمن وقر القرآن: فقد وقر الله ومن لم يوقر القرآن، فقد استخف بحرمة الله، حرمة القرآن على الله كحرمة الوالد على ولده».

وعن أبى أمامة أن النبى ﷺ قال: «من قرأ ثلث القرآن فقد أوتى ثلث النبوة، ومن قرأ نصف القرآن أوتى نصف النبوة، ومن قرأ ثلثى القرآن أوتى ثلثى النبوة ومن قرأ القرآن كله أوتى النبوة كلها، ثم يقال له يوم القيامة: اقرأ وارق بكل آية درجة حتى يتبخر ما معه من القرآن ثم يقال له: اقبض فيقبض فيقال: هل تدرى ما فى يديك؟ فإذا فى اليمنى الخلد وفى الأخرى النعيم».

وعن عائشة -رضى الله عنها- عن النبى ﷺ أنه قال: «حملة **القرآن محفوفون برحمة الله الملبسون نور الله المعلمون كلام الله فمن عاداهم** فقد عادى الله ومن والاهم فقد والى الله».

يقول الله عز وجل: ﴿يا حملة كتاب الله تحببوا إلى الله بتوقير كتابه يزدكم حبًا ويحببكم إلى خلقه يدفع عن مستمع القرآن شر الدنيا ويدفع عن تالى القرآن بلوى الأخرة.

ولمستمع آية من كتاب الله خير من ثبير ذهبًا ولتالى آية من كتاب الله خير مما تحت العرش إلى تخوم الأرض السفلى.

وعن أبى بريدة -رضى الله عنه- قال: «كنت عند النبى ﷺ فسمعته يقول: إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره: كالرجل الشاحب فيقول له: هل تعرفنى؟ فيقول. ما أعرفك فيقول: أنا صاحبك. . القرآن الذى أظمأتك فى الهواجر، وأسهرت ليلك وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة.

قال: فيعطى الملك بيمينه، والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان: بم كسينا هذا؟ فيقال لهما: بأخذ ولدكما القرآن ثم يقال له: اقرأ واصعد فى درج الجنة وغرفها فهو فى صعود ما دام يقرأ: هذًا كان أو ترتيلاً».

وعن معاذ -رضى الله عنه- قال: «كنت فى سفر مع رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله حدثنا بحديث فقال: إن أردتم عيش السعداء أو موت الشهداء والنجاة يوم الحشر والظل يوم الحرور والهدى يوم الضلالة: فادرسوا القرآن فإنه كلام الرحمن وحرس من الشيطان ورجحان فى الميزان».

وعن عقبة بن عامر قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن فى الصفة فقال: أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان - أو العقيق فيأتى بناقتين كومادين زهراوين فى غير إثم ولا قطيعة رحم؟ قلنا: كلنا يا رسول الله يحب ذلك . . قال: لأن يغدو أحدكم كل يوم إلى المسجد فيتعلم آيتين من كتاب الله خير له من ناقتين وثلاث خير له من ثلاث من أعدادهن من الإبل».

وعن عائشة -رضى الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذى يتتعتع فيه له أجران».

وروى عن أبى ذر أنه جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إنى اخاف أن أتعلم القرآن ولا أعمل به فقال ﷺ: «لا يعذب الله قلبًا أسكنه القرآن».

وعن أنس عن النبى ﷺ أنه قال: «من علم آية من كتاب الله كان

له أجرها ما تليت» .

وعن ابن مسعود -رضى الله عنه- أن النبى ﷺ قال: «من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن مؤثرا فإن فيه علم الأولين والآخرين ألم تسمعوا قوله: ﴿ما فرطنا فى الكتاب من شىء﴾» .

وعن واثلة بن الأسقع أن النبى ﷺ قال: «أعطيت السبع الطوال مكان التوراة وأعطيت المائدة مكان الإنجيل وأعطيت المثانى مكان الزبور، وفضلت بالمفصل» .

وعن عثمان بن عفان -رضى الله عنه- أنه قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» .

قال ابن عباس -رضى الله عنهما-: افتخرت السماء على الأرض فقالت: أنا أفضل: فىّ العرش والكرسى واللوح والمقام وفىّ جنة المأوى وجنة عدن وفىّ الشمس والقمر والنجوم ومنى ينزل أرزاق الخلق وفىّ الرحمة فقالت الأرض: وتركت أن تقول: فىّ الأنبياء والأولياء وفىّ بيت الله بل قالت: أليس تنقلب أضلاع حملة القرآن فى بطنى فقال الله: صدقت يا أرض وكان افتخارها على السماء أن قال الله لها: صدقت! .

وعن أبى موسى الأشعرى -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ «مثل الذى يقرأ القرآن ويعمل به مثل الأترجة: طعمها طيب وريحها طيب، ومثل الذى لا يقرأ القرآن ويعمل به مثل التمرة: طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الذى يقرأ القرآن ولا يعمل به: كمثل الريحانة لها رائحة وطعمها مر، ومثل الذى لا يقرأ القرآن ولا يعمل به مثل الحنظلة: لا طعم لها ولا رائحة» .

وسئل النبى ﷺ: «من أحسن الناس صوتًا؟ قال: من إذا سمعته يقرأ خشية: تخشى الله وكان ﷺ يقول لأصحابه: اقرأوا القرآن بحزن فإنه نزل بحزن» .

وقال ﷺ: «إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد قيل: فما جلاؤها يا رسول الله قال: ذكر الموت وتلاوة القرآن. ألم تسمعوا قوله تعالى: ﴿وشفاء لما فى الصدور﴾[1] .

وقال عليه السلام: القرآن هو الدواء .

وقال: «لا فاقة بعد القرآن ولا غنى دونه» وقال: «ما آمن بالقرآن من استحل محارمه» وقال: «القرآن شافع مشفع أو ماحل مصدق» .

وقال: «من قرأ القرآن وعمل بما فيه: لم يردّ إلى أرذل العمر» .

وقال فى قوله: ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ قال: يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه .

النجاة من عذاب القبر

إذا سألنا وقلنا: ما هى أسباب المنجيات من عذاب القبر حتى نأخذ فى تحصيلها؟

فإن الجواب على ذلك يكون من وجهين: أحدهما مجمل والآخر مفصل .

أما المجمل: فهو تجنب تلك الأسباب التى تقتضى عذاب القبر ومن أنفعها أن يجلس الرجل عندما يريد النوم لله ساعة يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه فى يومه، ثم يجدد له توبة نصوحًا بينه وبين الله فينام على تلك التوبة، ويعزم على أن لا يعاود الذنب إذا استيقظ ويفعل هذا كل ليلة فإن مات من ليلته مات على توبة وإن استيقظ استيقظ مستقبلاً للعمل مسرورًا بتأخير أجله حتى يستقبل ربه ويستدرك ما فاته وليس للعبد أنفع من هذه النومة، ولا سيما إذا عقب ذلك بذكر الله واستعمال السنن التى وردت عن رسول الله ﷺ عند النوم حتى يغلبه النوم، فمن أراد الله به خيرًا وفقه لذلك ولا قوة إلا بالله

(١) سورة يونس الآية ٥٧ .

أما الجواب المفصل فذكر أحاديث عن رسول الله ﷺ فيما ينجى من عذاب القبر: فمنها: ما رواه مسلم فى صحيحه عن سلمان -رضى الله عنه- قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات أجرى عليه عمله الذى كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان»

وفى جامع الترمذى من حديث فضالة بن عبيد عن رسول الله ﷺ قال: «كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطًا فى سبيل الله فإنه ينمّى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر» قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح.

وفى سنن النسائى عن رشدى بن سعد عن رجل من أصحاب النبى ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون فى قبورهم إلا الشهيد؟ قال: كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة.

وعن المقدام بن معديكرب -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له فى أول دفعة من دمه ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع فى سبعين من أقاربه) رواه ابن ماجه والترمذى وهذا لفظه وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: «ضرب رجل من أصحاب رسل الله ﷺ خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة (الملك) حتى ختمها فأتى النبى ﷺ فقال يا رسول الله: ضربت خبائى على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة (الملك) حتى ختمها فقال النبى ﷺ: «هى المانعة، هى المنجية: تنجيه من عذاب القبر» قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب.

وفى سند عبد بن حميد عن إبراهيم بن الحكم عن أبيه عكرمة عن ابن عباس -رضى الله عنهما- أنه قال لرجل: ألا أتحفك بحديث تفرح

(١) سورة الملك الآية ١.

به؟ قال الرجل: بلى؟ قال: اقرأ: ﴿تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير﴾[١]. احفظها وعلمها أهلك وولدك وصبيان بيتك وجيرانك فإنها المنجية والمجادلة تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها وتطلب له إلى ربها أن ينجيه من عذاب النار إذا كانت فى جوفه وينجى الله بها صاحبها من عذاب القبر، قال رسول الله ﷺ: «لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى».

قال أبو عمر بن عبد البر: وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن سورة ثلاثين آية شفعت فى صاحبها حتى غفر له»: ﴿تبارك الذى بيده الملك﴾.

وفى سنن ابن ماجه من حديث أبى هريرة -رضى الله عنه- يرفعه: «من مات مبطونًا: مات شهيدًا ووقى فتنة القبر وغدى وريح عليه برزق من الجنة».

وفى سنن النسائى عن جامع بن شداد قال: سمعت عبدالله بن يشكر يقول: «كنت جالسًا مع سليمان بن صرة وخالد بن عرفطة فذكروا أن رجلاً مات ببطنه فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهدا جنازته فقال أحدهما للآخر: ألم يقل رسول الله ﷺ: من قتله بطنه لم يعذب فى قبره».

وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده حدثنا شعبة حدثنى أحمد بن جامع بن شداد قال أبى فذكره وزاد: فقال الآخر: بلى.

وفى الترمذى من حديث ربيعة بن سيف عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر».

قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب وليس إسناده بمتصل.

(١) سورة الملك الآية ١.

وقد جاء فيما ينجى من عذاب القبر حديث فيه الشفاء رواه أبوموسى المدينى وبين علّته فى كتابه (الترغيب والترهيب وجعله شرحًا له) رواه من حديث الفرج بن نضالة حدثنا هلال أبو جبلة عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن فى صفة بالمدينة فقام علينا فقال: إنى رأيت البارحة عجبًا رأيت رجلاً من أمتى أتاه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالدين فرد ملك الموت عنه. ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته الشياطين فجاء ذكر الله فطير الشياطين عنه. ورأيت رجلاً من أمتى احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم. ورأيت رجلاً من أمتى يلهث عطشًا كلما دنا من حوض منع وطرد فجاءه صيام شهر رمضان فأسقاه ورواه. ورأيت رجلاً من أمتى ورأيت النبيين جلوسًا حلقًا حلقًا كلما دنا إلى حلقة طرد ومنع فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبى. ورأيت رجلاً من أمتى من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن يساره ظلمة ومن فوقه ظلمة وهو متحير فيها فجاءه حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه فى النور. ورأيت رجلاً من أمتى يتقى وهج النار وشررها فجاءته صدقته فصارت سترًا بينه وبين النار وظلاً على رأسه. ورأيت رجلاً من أمتى يكلم المؤمنين ولا يكلمونه فجاءته صلته لرحمه فقالت: يا معشر المؤمنين إنه كان وصولاً لرحمه فكلموه فكلمه المؤمنون وصافحوه وصافحهم. ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته الزبانية فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وأدخله فى ملائكة الرحمة. ورأيت رجلاً من أمتى جاثيًا على ركبتين وبينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذه بيده فأدخله على الله عز وجل. ورأيت رجلاً من أمتى قد ذهبت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله -عز وجل- فأخذ صحيفته فوضعها فى يمينه. ورأيت رجلاً من أمتى خف ميزانه فجاءه إفراطه فثقلوا ميزانه. ورأيت رجلاً من أمتى قائمًا على شفير جهنم فجاءه رجاؤه من الله عز وجل

فاستنقذه من ذلك ومعنى ورأيت رجلاً من أمتى قد هوى فى النار فجاءته دمعته التى بكى من خشية الله -عز وجل- فاستنقذته من ذلك. ورأيت رجلاً من أمتى قائما على الصراط يرعد كما ترعد السعفة فى ريح عاصف فجاءه حسن ظنه بالله عز وجل فسكن روعه ومضى. ورأيت رجلاً من أمتى يزحف على الصراط يحبو أحيانًا ويتعلق أحيانًا فجاءته صلاته فأقامته على قدميه وأنقذته. ورأيت رجلاً من أمتى انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة.

قال الحافظ أبو موسى: هذا حديث حسن جدًا فبادر يا أخى بالأعمال الصالحة كما أمرك بذلك مولانا سبحانه وتعالى فى قوله: **﴿فاستبقوا الخيرات﴾**(1) وفى قوله عز وجل **﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾**(2).

وفى قوله جل شأنه **﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾**(3).

وفى قوله تبارك وتعالى **﴿وفى ذلك فليتنافس المتنافسون﴾**(4).

قال ﷺ: «بادروا بالأعمال الصالحة سبعًا هل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا، أو غنى مطغيًا، أو هرمًا مفندًا، أو مرضًا مفسدًا، أو موتًا مجهزًا، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر».

فكن لله ذاكرًا وإياك ونسيان الموت فنسيانه ضلال مبين.

واعلم بأن خير الأعمال: ذكر الله.

(1) سورة البقرة الآية ١٤٨. (2) سورة آل عمران الآيتان [١٣٣ ، ١٣٤].
(3) سورة الحديد الآية ٢١. (4) سورة المطففين الآية ٢٦.

والذكر على سبعة أنحاء:
ذكر العينين: البكاء.
ذكر الأذنين: الإصغاء.
ذكر اللسان: الثناء.
ذكر اليدين: العطاء.
ذكر البدن: الوفاء.
ذكر الروح: الخوف والرجاء.
ذكر القلب: التسليم والرضاء.

فضل ذكر الله

قال صلوات الله وسلامه عليه: «ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده».

وقال ﷺ: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قلنا: بلى قال: ذكر الله».

مناجاة

ما والذى أبكى وأضحك والذى
أمات وأحيا والذى أخرج المرعى
لقد خاب من يسعى إلى غير بابه
وضل الذى يومًا إلى غيره يدعى
هو القصد لا شىء سواه فمن سعى
إلى غير ذاك القصد ياخيبة المسعى
هو الماجد البر الرحيم وغيره
من الناس لا يستطيع ضرًا ولا نفعا

يعامل بالغفران والصفح من عصى
ويوصل من يستوجب الهجر والقطعا
فسبحانه لا رب فى الكون غيره
يحب الذى يلقى إلى قوله السمعا

سؤال القبر

اعلم بأن سؤال القبر: يعم المؤمن والكافر والقرآن والسنة يؤيدان ذلك.

﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾[1].

وقد ثبت فى الصحيح أنها نزلت فى عذاب القبر حين يسأل: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟.

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ أنه قال: «إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه: إنه ليسمع قرع نعالهم» وذكر الحديث.

زاد البخارى:

وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول: لا أدرى كنت أقول كما يقول الناس فيقال: لا دريت ولا تليت... ويضرب بمطرقة من حديد يصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين. وقد أخبر الله فى كتابه أنه يسأل الكافر يوم القيامة قال تعالى: ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾[2]. وقال تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾[3].

وقال تعالى: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾[4].

(١) سورة إبراهم الآية ٢٧. (٢) سورة القصص الآية ٦٥.
(٣) سورة الحجر الآية ٩٢. (٤) سورة الأعراف الآية ٦.

فإذا سئلوا يوم القيامة: فكيف لا يسألون في قبورهم؟

مستقر الأرواح

هناك أسئلة تتعلق بالروح وتجد النفس اشتياقًا ملحًا لمعرفة الإجابة عنها...

وأول هذه الأسئلة:

أين مستقر الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة؟

ويتفرع عن هذا السؤال أسئلة تقول:

هل هي في السماء أم في الأرض؟.. وهل هي في الجنة. أم لا؟.

قال العلماء - تعقيبًا على هذه الأسئلة -: هذه مسألة عظيمة تكلم فيها الناس.. ومصدر الإجابة عنها هو السمع: أي من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

يرى العلماء أن أرواح المؤمنين عند الله في الجنة: شهداء كانوا أم غير شهداء إذا لم تحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دين، وإن روح الكافر في النار.

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿**فأما إن كان من المقربين. فروح وريحان وجنة نعيم**﴾[1].

قال المستدل: وهذا قد ذكره سبحانه وتعالى عقب ذكر خروجها من البدن بالموت في قوله جل شأنه: ﴿**فلولا إذا بلغت الحلقوم. وأنتم حينئذ تنظرون. ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون. فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين**﴾[2].

قال سبحانه بعد ذلك: ﴿**فأما إن كان من المقربين. فروح وريحان وجنة نعيم**﴾[3].

---

(١) سورة الواقعة الآيتان [٨٨ ، ٨٩]. (٢) سورة الواقعة الآيتان [٨٣ : ٨٧].
(٣) سورة الواقعة الآيتان [٨٨ : ٨٩].

فقد قسم الأرواح إلى ثلاثة أقسام:

(مقربين).. أخبر أنها في جنة النعيم.

(وأصحاب يمين): حكم لها بالسلام، وهو يتضمن سلامتها من العذاب.

(ومكذبة ضالة): وأخبر أن لها نزلاً من حميم وتصلية جحيم.

قالوا: وهذا بعد مفارقتها للبدن قطعًا.

وقد ذكر سبحانه حالها يوم القيامة في أول السورة، فذكر حالها بعد الموت وبعد البعث.

واحتجوا بقوله تعالى: ﴿**يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي**﴾[1].

وقد قال غير واحد من الصحابة والتابعين: إن هذا يقال لها عند خروجها من الدنيا أيبشرها الملك بذلك.

ولا ينافي ذلك قول من قال إن هذا يقال لها في الآخرة، فإنه يقال لها عند الموت وعند البعث، وهذه من البشرى التي قال الله فيها: ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا. تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**﴾[2].

وهذا التنزل يكون عند الموت، ويكون في القبر، ويكون عند البعث، وأول بشارة الآخرة عند الموت.

وقد جاء في حديث رسول الله ﷺ أن الملك يقول لها عند قبضها: أبشري بروح وريحان. وهذا من ريحان الجنة وروى الإمام مالك في (الموطأ) عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أنه أخبره أن أباه كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمة المؤمن: طائر تعلق في شجرة الجنة حتى يرجعه الله إلى حياة يوم يبعثه».

---

(١) سورة الفجر الآيتان [٢٧ : ٣٠]. (٢) سورة فصلت الآية ٣٠.

قال أبو عمرو: المراد بنسمة المؤمن: روحه. وقد شاء فضل الله تعالى أن يخص الشهداء بمنازل كريمة ودرجات رفيعة، جزاء ما بذلوا وقاتلوا وقتلوا.

قال ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له فى أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار: الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنين وسبعين من الحور العين، ويشفع فى سبعين إنسانًا من أقاربه».

فلما كان هذا يختص بالشهيد قال: «إن للشهيد» ولم يقل: «إن للمؤمن». وكذلك قوله فى حديث قيس الجزامى: «يعطى الشهيد ست خصال». وكذلك سائر الأحاديث والنصوص التى علق فيها الجزاء بالشهادة.

وعنه ﷺ أنه قال: «أرواح الشهداء تجول فى أجواف طير خضر تعلق فى ثمر الجنة».

وعن معمر عن قتادة قال: بلغنا أن أرواح الشهداء فى صور بيض تأكل من ثمار الجنة.

وعن أبى عاصم النبيل عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن عبد الله بن عمرو: «أرواح الشهداء فى طير كالزرازير يتعارفون ويرزقون من ثمرة الجنة».

قال أبو عمر: هذه الآثار كلها تدل على أنهم الشهداء، دون غيرهم. وفى بعضها «فى صور طير». وفى بعضها «فى أجواف طير» وفى بعضها «كطير خضر».

قال: والذى يثبت عندى -والله أعلم- أن يكون القول قول من قال «كطير» أو «صور الطير».

ثم: مازلنا بصدد الحديث عن مستقر الأرواح.

قال أبو عبد الله بن منده: وروى موسى بن عبيدة عن عبد الله بن يزيد عن أم كبشة بنت المعرور قالت: «دخل علينا رسول الله ﷺ، فسألناه عن هذه الأرواح؟ فوصفها صفة أبكى أهل البيت. فقال: «إن أرواح المؤمنين فى حواصل طير خضر، ترعى فى الجنة، وتأكل من ثمارها، وتشرب من مائها، وتأوى إلى قناديل من ذهب تحت العرش يقولون: ربنا ألحق بنا إخواننا وآتنا ما وعدتنا».

وإن أرواح الكفار فى حواصل الطير سود، تأكل من النار وتشرب من النار، وتأوى إلى حجر فى النار.. يقولون: ربنا لا تلحق بنا إخواننا ولا تؤتنا ما وعدتنا.

وقال الطبرانى: حدثنا أبو زرعة الدمشقى، حدثنا عبدالله بن صالح حدثنى معاوية بن صالح عن صخرة بن حبيب قال: سئل النبى ﷺ عن أرواح المؤمنين، فقال: فى طير خضر، تسرح فى الجنة حيث شاءت قالوا يا رسول الله وأرواح الكفار؟ قال محبوسة فى سجين.

رواه أبو الشيخ عن هشام بن يونس عن عبدالله بن صالح (ورواه) أبو المغيرة عن أبى بكر بن أبى مريم عن صخرة بن حبيب.

وعن تميم الرازى عن النبى ﷺ أنه قال: إذا عرج ملك الموت بروح المؤمن إلى السماء: استقبله جبرائيل فى سبعين ألفًا من الملائكة كل منهم يأتيه ببشارة من السماء، سوى بشارة صاحبه فإذا انتهى به إلى العرش: خر ساجدًا فيقول الله -عز وجل- لملك الموت: انطلق بروح عبدى فضعه فى سدر مخضود وطلح منضود وظل مدود وماء مسكوب.

رواه بكر بن خنيس عن خدار بن عمرو عن زيد وأبى عبدالله.

كلمة عن الروح

اعلم يا أخى - وفقنى الله وإياك - أن الروح لا يمنعها شىء من الإشراف والاتصال بالقبر وفنائه.. وذلك القدر من الإشراف كاف لعرض مقعده عليه... فإن للروح شأنًا آخر: تكون فى الرفيق الأعلى

فى أعلى عليين ولها اتصال بالبدن سلم المسلم على الميت رد الله عليه روحه فيرد عليه السلام وهى فى الملأ الأعلى.

ومن الخطأ الشنيع أن يعتقد بعض الناس أن الروح من جنس ما يعهد من الأجسام التى إذا شغلت مكانًا لا يمكن أن تكون فى غيره. وهذا خطأ محض... بل الروح تكون فوق فى أعلى عليين وترد إلى القبر فترد السلام. وتعلم بالمسلم وهى فى مكانها هناك وروح رسول الله ﷺ فى الرفيق الأعلى دائمًا ويردها الله سبحانه وتعالى إلى القبر فترد السلام على من سلم عليه وتسمع كلامه.

وقد رأى رسول الله ﷺ موسى قائمًا يصلى فى قبر، ورآه فى السماء الخامسة والسادسة والسابعة: فإما أن تكون سريعة الحركة والانتقال كلمح البصر، وإما أن يكون المتصل منها بالقبر وفنائه بمنزلة شعاع الشمس وجرمها فى السماء.

وقد ثبت أن روح النائم تصعد حتى تخترق السبع الطباق وتسجد لله بين يدى العرش، ثم ترد إلى جسده فى أيسر زمان.

وكذلك روح الميت: تصعد بها الملائكة حتى تجاوز السماوات السبع، وتقف بين يدى الله فتسجد له، ويقضى فيها قضاء، ويريها الملك ما أعد الله لها فى الجنة، ثم تهبط فتشهد غسله وحمله ودفنه.

وقد ذكر أبو عبدالله بن منده من حديث عيسى بن عبدالرحمن:

حدثنا ابن شهاب، حدثنا عامر بن سعد عن إسماعيل بن طلحة ابن عبيد الله عن أبيه قال: «أردت مالى بالغابة، فأدركنى الليل، فأويت إلى قبر عبدالله بن عمرو بن حرام، فسمعت قراءة من القبر ما سمعت أحسن منها فجئت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: ذلك عبدالله.. ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها فى قناديل من زبرجد وياقوت ثم علقها وسط الجنة، فإذا كان الليل ردت إليهم أرواحهم فلا يزال كذلك، حتى إذا طلع الفجر: ردت أرواحهم إلى مكانهم الذى كانت به».

ففى هذا الحديث: بيان سرعة انتقال أرواحهم من العرش إلى الثرى، ثم انتقالها من الثرى إلى مكانها.

ولهذا قال مالك وغيره من الأئمة: إن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت وما يراه الناس من أرواح الموتى ومجيئهم إليهم من المكان البعيد: أمر يعلمه عامة الناس. ولا يشكون فيه.

ابن القيم والعلاقة بين الحى والميت

عقد العلامة ابن القيم فصلاً يدور حول سؤال، مفاده: هل تعرف الأموات زيارة الأحياء وسلامهم.. أم لا؟ ولما كان هذا السؤال يلقى ظلالاً على نفس السائل: لابد من كشف الغطاء عنها.. فإن الإجابة جاءت موافقة للقاعدة التى قعدناها من قبل، والتى تفيد أن المصدر الحقيقى لما يدور بعد الموت: إنما هو السماع من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

ولذا بدأ «ابن القيم» الإجابة قائلاً:

قال ابن عبدالبر ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «ما من مسلم يمر على قبر أخيه كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه، إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام».

وفى الصحيحين عنه ﷺ - من وجوه متعددة - «أنه أمر بقتلى بدر فألقوا فى قليب، ثم جاء حتى وقف عليهم وناداهم بأسمائهم: يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان: هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا، فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقًا فقال له عمر: يا رسول الله: ما تخاطب من أقوام قد جيفوا... فقال: والذى بعثنى بالحق: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون جوابًا».

وثبت عنه ﷺ أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له، إذا انصرفوا عنه. وقد شرع النبى ﷺ لأمته: إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه، فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين» وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل. ولولا ذلك: لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب المعدوم والجماد.

والسلف الصالح مجمعون على هذا وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحى له، ويستبشر به.

وقال أبو بكر عن عبدالله بن محمد بن عبيد بن أبى الدنيا فى كتاب

«القبور»: باب معرفة الموتى بزيارة الأحياء:

حدثنا محمد بن عون، حدثنا يحيى بن يمان عن عبدالله بن سمعان عن زيد بن أسلم عن عائشة -رضى الله عنها- قالت:

قال رسـول الله ﷺ: «ما من رجل يزور قبر أخـيه ويجلس عنده: إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم».

حدثنا مـحمد بن قدامة الجـوهرى، حدثنا معن بن عيـسى القزاز، أخبـرنا هشام بن سعد، حـدثنا زيد بن أسلم عن أبى هريرة -رضى الله تعالى عنه- قال: «إذا مر الرجل...

...الشمس، قال: قلت: فكيف ذلك دون الأيام كلهـا؟ قال: لفـضل يوم الجمعة وعظمته».

وحدثنا مـحمد بن الحسين وحـدثنى بكر بن محمد، حـدثنا حسن القصاب قـال: كنت أغدو مع محمد بن واسع فى كل غـداة سبت حتى نأتى المقـابر فنقف على القبـر فنـسلم عليـهم وندعو لهم، ثم ننـصرف، فـقلت ذات يوم: لو صيدت هذا اليـوم -يوم الإثنين- قـال: بلغنى أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوم قبلها ويوم بعدها.

حدثنى مـحمد، حدثـنا عبدالعزيز بن أبـان، قال: حدثنا سفـيان الثورى، قال: «بلغنى عن الضحاك أنه قال: من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس: علم المـيت بزيارته، فقيل له: وكـيف ذلك؟ قال: لمكان يوم الجمعة»

حدثـنى محـمد بن الحـسين، حدثنى يحـيى بن أبى بكير حـدثنى

الفضل بن موفق بن خـال سفيان بن عيينة قـال: «لما مات أبى: جزعت عليه جزعًا شديدًا فكنت آتى قبره فى كل يوم ثم قعدت من ذلك ما شاء الله ثم إنى أتيتـه يومًا... فبينمـا أنا جالس عند القبر: غلبـتنى عينـاى، فنمت فرأيت كأن قبر أبى قد انفرج وكأنه قاعد فى قبره متوشحًا أكفانه، عليه سحنة الموتى، قال فكأنى بكـيت لما رايته، قال: يا بنى ما أبطأ بك عنى؟ قلت: وإنك لتعلم بمجيـئى؟ قال: ما جئت مرة إلا علمـتها، وقد كنت تأتينى فآنس بك وأسر بك ويسـر من حولى بدعائك، قال: فكنت...

وما هى؟ قالت: لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا والدعاء بمجيئك يوم الجمعـة، إذا أقبلت من أهلك، يقال لى: هذا فاسر ويسر بذلك من حولى من الأموات».

حدثنى محـمد بن عبدالعـزيز بن سليمان، حدثنا بشـ... قال: «لما كان زمن الطاعون فكان رجل يختلف إلى المقابر... على الجنائـز، فـإذا أمـسى: وقف على باب المقـابر فـقـ... وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل حسناتكم... على هذه الكلمات، قـال: فأمسيت ذات لـيلة وانصرفت إلى أهلى ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو، قـال: فبينا أنا نائم: إذا بخلق كثير قد جاءونى فقلت: ما أنتم وما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهل المقابر، قلت: ما حـاجتـكم؟ قالوا: إنـك عودتنا مـنك هدية عند انصـرافك إلى أهلك. فقلت: وما هى؟ قالوا: الدعوات التى كنت تدعو بها، قال: قلت أعود لذلك، قال: فما تركتها بعد».

ابنك قد أقبل

ـر بن منصور

فيشهد الصلاة

ـال: آنس الله

استئناس الميت بالمشيعين لجنازته

ثبت فى الصحيح أن الميت يستأنس بالمشيعين لجنازته بعد دفنه...

روى مسلم فى صحيحه من حديث عبدالرحمن بن شماسة المهدى، قال: «حضرنا عمرو بن العاص وهو فى سياق الموت، فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: ما يبكيك يا أبتاه؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا، فأقبل بوجهه، فقال: إن أفضل ما بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإنى كنت على أطباق ثلاث، لقد رأيتنى وما أحد أشد بغضًا لرسول الله ﷺ منى ولا أحب إلى أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار. فلما جعل الله الإسلام فى قلبى: لقيت رسول الله ﷺ، فقلت: أبسط يديك فلأبايعك، فبسط يمينه قال: فقبضت يدى، قال: فقال: مالك يا عمرو؟ قال: قلت: أردت أن أشترط قال: تشترط ماذا؟ قلت أن يغفر لى. قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله، وما كان أحداً أحب إلىّ من رسول الله ﷺ، ولا أجل فى عينى منه، وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالاً له ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأنى لم أكن أملأ عينى منه، لو مت على تلك الحال: لرجوت أن أكون من أهل الجنة.. ثم ولينا أشياء ما أدرى ما حالى فيها، فإذا أنا مت فلا تصاحبنى نائحة ولا نار، فإذا دفنتمونى: فسنوا على التراب سنا ثم أقيموا حول قبرى قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم، وانظر ماذا أراجع به رسل ربى.

فدل ذلك على أن الميت يستأنس بالحاضرين عند قبره ويسر بهم.

وقد ذكر عن جماعة من السلف الصالح أنهم أوصوا أن يقرأ عند قبورهم وقت الدفن.

قال عبدالحق: يروى أن عبدالله بن عمر أمر أن يقرأ عند قبره سورة البقرة. وممن رأى ذلك: المعلى بن عبدالرحمن وكان الإمام أحمد منكر ذلك أولاً، حيث لم يبلغه فيه أثر، ثم رجع عن ذلك.

الماديون والموت

إن الصلة بين الحى والميت أكبر وأستر وأقوى من صلة الأحياء بالأحياء. وخاطئ كل الخطأ: من ظن أن الموت حكم بالإعدام وهذا ما يردده الماديون الغافلون المضلون، إن الموت مرحلة انتقال من عالم الفناء إلى عالم الخلود والبقاء.

انتقال من جوار الخلق إلى رحاب الحق. انكشاف للحجب الكثيفة. **﴿لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾**(1).

والذى أوقع الماديين فى هذه الهوة السحيقة من الضلال حتى ذهبوا إلى فهم الموت على أنه انطفاء الحرارة وتحلل الرطوبات وقالوا: ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما هى إلا الأرحام تدفع وأرض تبلع.

الذى أوقعهم فى هذا الضلال: أنهم قاسوا الغائب على الشاهد وطلبوا المحسوس فى غير المحسوس سقط خلفه يعم عن المحسوس كغشاء عين الخفافيش عن رؤية الأجسام البينة لنا فى ضوء الشمس:

قل لهؤلاء الماديين الحسيين: وهل نحن أبصرنا قوانين الكون، وهل وقعت أجزاؤه تحت حسنا، هل رأت أبصارنا الأشعة فوق البنفسجية أو تحت الحمراء؟

هل أدركنا حقيقة المغناطيسية أو الجاذبية أو الضوء أو الأثير؟

هل وقعت أيدينا على هذه الحقائق الماثلة فى هذا الكون الرحيب؟

فإذا كنا لم ندرك حقيقتها.. فكيف تصل عقولنا إلى أن نكيف

(1) سورة ق الآية ٢٢.

عالم البرزخ، وهو محيط أعنف من أن يعجز عبابه سباح ماهر.

إن إدراك عالم البرزخ: ليس مجاله الحسن كما أن العقل يقف واجمًا أمام بحاره.

إنما طريقه: الوحى المعصوم.

فإن الموت أمر متعلق بالروح، قال تعالى: **﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى .. وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾**(١).

تعلقات الروح بالبدن

اعلم. وفقنى الله وإياك أن للروح خمسة تعلقات بالبدن:

التعلق الأول:

تعلقها به فى عالم الأرحام: فبعد أن مضت مدة النطفة فالعلقة، فالمضغة: نفخ الله فينا الأرواح... قال تبارك اسمه: **﴿ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم. الذى أحسن كل شىء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾**(٢).

التعلق الثانى:

تعلقها بالبدن فى هذه الدنيا حيث تقوم ببث الحياة فينصرف البدن ويباشر أعباء الحياة قال تبارك اسمه: **﴿ثم أنشأناه خلقًا آخر ... فتبارك الله أحسن الخالقين﴾**(٣).

التعلق الثالث:

تعلقها بالبدن عند النوم فإنها وقتذاك يكون لها مباشرة من وجه خاص.. قال جل شأنه: **﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت**

(١) سورة الإسراء الآية ٨٥.
(٢) سورة السجدة الآيات [٦: ٩].
(٣) سورة المؤمنون الآية ١٤.

فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾(١).

التعلق الرابع:

تعلقها بالبدن بعد الموت فى عالم البرزخ.. قال تعالى: **﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحًا فيما تركت.. كلا .. إنها كلمة هو قائلها، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾**(٢).

التعلق الخامس:

تعلقها به يوم القيامة بعد البعث.. قال جل جلاله: **﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وأشرقت الأرض بنور ربها﴾**(٣).

وقال عز من قائل: **﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾**(٤).

ملاحظة جديرة بالاعتبار

من تأمل التعلقات السابقة: يلاحظ أن كل مرحلة من هذه المراحل أوسع أفقًا وأرحب منزلة عما قبلها.

ولذا قيل: إن خروج المؤمن من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة: كخروج الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا:

فتعلق الروح بالجنين فى الرحم مكان ضيق، وتعلقها به فى الدنيا حال اليقظة مكان أوسع، وتعلقها به فى المنام أرحب وأوسع حيث تنتقل الروح فى أرجاء الكون.

والموت أوسع وأوسع:

فقد جاء فى الحديث: «لتموتن كما تنامون».

ولأن الموت تخلص من ظلمة المادة مما يعطى الروح رحابة أفق.

وتعلقها به بعد البعث: أشد رحابة وأوسع أفقًا.

(١) سورة الزمر الآية ٤٢.
(٢) سورة المؤمنون الآية ١٠٠.
(٣) سورة الزمر الآيتان [٦٨، ٦٩].
(٤) سورة المؤمنون الآيتان [١٥، ١٦].

قال تعالى: ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا، فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾(١).

نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يقول فيهم: ﴿فأما إن كان من المقربين، فروح وريحان وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين﴾(٢).

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.. ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾(٣).

وصلى الله على سيدنا محمد البشير النذير وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين واحشرنا فى زمرتهم يا رب العالمين . آمين.

فصل

المراقبة والمحاسبة

اعلموا أيها العقلاء أنكم غدًا بين يدى الله موقوفون وعن أعمالكم محاسبون وعلى رب العزة ستعرضون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون فاليوم عمل ولا حساب وغدًا حساب ولا عمل.

غدًا توفى النفوس ما كسبت
ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم
وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

قيل لتقى الدين الحسن البصرى -رضى الله عنه-: أى الأيام عندك عيد فقال: كل يوم لا أعصى الله فيه فهو عيد.

إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقى
تقلب عريانًا ولو كان كاسيا

(٢) سورة ق الآية ٢٢. (٢) سورة الواقعة الآيات [٨٨ : ٩١].
(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٦.

وخير لباس المرء طاعة ربه
ولا خير فيمن كان لله عاصيا

كان فاروق هذه الأمة -رضى الله عنه- إذا أخذ مضجعه لينام كان يردد هذا النشيد المصحوب بالتشنج: كان يسأل نفسه هذا السؤال: ماذا تقول لربك غدًا يا عمر؟ لقد كنت ضالاً فهداك الله وكنت ضعيفًا فرفعك الله وكنت ذليلاً فأعزك الله، فماذا تقول لربك غدًا؟ فهذا الفاروق يحاسب نفسه وهو الذى كان يقول: لو عثرت بغلة فى العراق لسألنى الله عنها لم لم تصلح لها الطريق يا عمر؟ وكان يقول رحم الله امرءًا أهدى إلىّ عيوبى وكان يقول لأهله: اتقوا الله يا آل عمر فإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحمة وكان يخاف من الله خوف من يعتقد أن النار لم تخلق إلا له وحده وكأنه يقول: لو نادى مناد يوم القيامة كل الناس يدخلون الجنة إلا واحدًا لخشيت أن أكون أنا ذلك الواحد.

وكان يقول: والله ما قبلت الخلافة إلا كما يقبلها المضطر أكل الميتة وإن مثلى وأمة محمد كمثل الوصى على مال اليتيم إن وجد استغنى وإن لم يجد أكل بالمعروف يرحمك الله يا أمير المؤمنين.

يا رافع راية الشورى وحارسها
جزاك ربك خيرًا عن محبيها
رأى الجماعة لا تشقى البلاد به
رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها
إن جاع فى شدة قوم شاركتهم
فى الجوع أو تنجلى عنها غواشيها
جوع الخليفة والدنيا بقبضته
فى الزهد منزلة سبحان موليها
فمن يبارى أبا حفص وسيرته
أو من يحاول للفاروق تشبيها
يوم اشتهت زوجته الحلوى فقال لها
من أين لى ثمن الحلوى فأشريها

عن قوتنا فالمسلمون به
أولى فقومى لبيت المال رديها
أخلاقه كانت وما عهدت
بعد النبوة أخلاق تحاكيها

ـر المؤمنين فانظروا كيف يحاسب نفسه واعجبوا كيف
فسكم قبل أن تحاسبوا؟.

ن أصبحت لا تدمع وما للآذان أصبحت لا تسمع وما
لا تخشع وما للأبدان أصبحت لا تسجد ولا تركع.

، يؤمن بالقدر ثم هو يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالرزق
عجبت لمن يؤمن بالموت ثم هو يفرح، ثم يؤمن بالنار
وعجبت لمن يؤمن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل،
الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن لها.

الإسلام أبو حامد الغزالى -رضى الله عنه- فى كتاب

المراقبة والمحاسبة ما نصه:

حمن الرحيم

قائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على كل جارحة
لع على ضمائر القلوب إذا هى هجست، الحسيب على
ا اختلجت الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى
س تحركت أو سكنت، المحاسب على النقير والقطمير
ن الأعمال وإن خفيت، المتفضل بقبول طاعات العباد
ول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت، وإنما يحاسبهم
ـا أحضرت وتنظر فيما قدمت وأخرت فتعلم أنه لولا
والمحاسبة فى الدنيا لشقيت فى صعيد القيامة وهلكت
ول بضاعتها المزجاة لخابت

حاسبة والمراقبة لولا فضله بقـ

(٥) سورة آل عمران الآية ١٦١.
(٧) سورة البقرة الآية ٢٣٥.

وخسرت، فسبحان من عمت نعمه كافة العباد وشملت واستغرقته رحمته الخلائق فى الدنيا والآخرة، وغمرت فبنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت وبيمن توفيقه تغيرت الجوارح بالعبارات وتأدبت وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت وبتأييده ونصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفعت وبلطف عنايته ترجح كفة الحسنات إذا ثقلت، وبتيسيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت فمنه العطاء والجزاء والإبعاد والإدناء والإسعاد والإشقاء والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء.

أما بعد فقد قال الله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعًا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شىء شهيد﴾[3].

وقال تعالى: ﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتًا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾[5].

وقال تعالى: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه﴾[6].

وقال تعالى: ﴿واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه﴾[7].

فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد

(١) سورة الأنبياء الآية ٤٧.
(٢) سورة الكهف الآية ٤٩.
(٣) سورة المجادلة الآية ٦.
(٤) سورة الزلزلة الآيات [٦ :٨].
(٦) سورة آل عمران الآية ٢٠.

وأنهم سيناقشون فى الحساب ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس فى الأنفاس والحركات ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف فى القيامة حسابه وحضر عن السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسرته وطالت فى عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الخزى والمقت سيئاته فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل: **﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا﴾**[1].

فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاتبة فكانت لهم فى المرابطة ست مقامات ولابد من شرحها وبيان حقيقتها وفضليتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة، ولكن كل حساب فبعده مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة، فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق.

(المقام الأول من المرابطة والمشارطة)

اعلم أن مطلب المتعاملين فى التجارات المشتركين فى البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العاقل هو التاجر فى طريق الآخرة وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس، لأن بذلك فلاحها قال تعالى **﴿قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها﴾**[2].

وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس فى هذه التجارة إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذى يتجر فى ماله وكما أن الشريك يصير خصمًا منازعًا يجاذبه فى الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولاً ويراقبه ثانيًا ويحاسبه ثالثًا ويعاقبه

---

(١) سورة النساء الآية ٢٠٠.   (٢) سورة الليل الآيتان [٩ : ١٠].

أو يعاتبه رابعًا
عليها الوظائف
عليها الأمر بـ
أهملها لم ير م
الجو وانفرد بالم
شرط عليها، فإ
مع الأنبياء والـ
تدقيقه فى أربا
كيفما كانت فم
بل شر لا يدوم
بقى الفرح بانقـ
الأسف على الن
أشد الغم
فحتم ع
محاسبة نفسـ
وحظواتها، فـ
يمكن أن يشترى
هذه الأنفاس ؤ
هائل لا تسمح
ينبغى أن يفر
البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته فيقول: للنفس ما لى بضاعة إلا العمر ومهما فنى فقد فنى رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد أمهلنى الله فيه وأنا فى أجلى، وأنعم علىّ به ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحًا فاحسبى أنك قد توفيت ثم قد رددت فإياك ثم إياك أن

تضيعي هذا اليوم فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها، واعلمي يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وقد ورد في الخبر «أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها ويغشاه ظلامها وهي الساعة التي عصى الله فيها فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسوءه وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير، وهكذا الملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته وناهيك به حسرة وغبنا، وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه: اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ولا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك، وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة فألم الغبن والحسرة لا يطاق وإن كان دون من النار وقد قال بعضهم: هب أن المسيء قد عفي عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين.

أشار به إلى الغبن والحسرة وقال تعالى ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن﴾[1]. فهذه وصيته لنفسه في أوقاته ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة، وهي: العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل وتسليمها إليها فإنها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة وبها تتم أعمال هذه التجارة، وإن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء

(١) سورة التغابن الآية ٩.

فيوصيها بحفظها عن معاصيها أما العين فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم أو إلى عورة مسلم أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار بل عن كل فضول مستغنى عنه فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو لا سيما اللسان والبطن، أما اللسان فلأنه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه في الحركة وجنايته عظيمة بالغيب والكذب والنميمة وتزكية النفس ومذمة الخلق والأطعمة واللعن والدعاء على الأعداء والممارة في الكلام وغير ذلك. فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا في الذكر، فنطق المؤمن ذكر ونظره عبرة وصمته فكرة ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾[1].

وأما البطن فيكلفه ترك الشر وتقليل الأكل من الحلال، واجتناب الشبهات ويمنعه من الشهوات ويقتصر على قدر الضرورة ويشترط على نفسه أنها إن خالفت شيئًا من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها، وهكذا يشرط عليه في جميع الأعضاء واستقصاء ذلك يطول ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعتها ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ثم في النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ويرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها، وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أيامًا وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن المشارطة فيها وإن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقي، ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم

(١) سورة ق الآية ١٨.

جديد وواقعـة حادثة لها حكم جديد ولله عليـه فى ذلك حق ويكثر هذا على من يشتغل بشىء من أعـمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق فى مجاريها ويحذرها مغبـة الإهمال ويعظها كمـا يوعظ العبد الآبق المتمـرد فإن النفس بالطبع متمردة على الطاعات مستعصية على العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها. ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[1]. فهذا وما يجرى مجراه هو أول مقـام المرابطة مع النفس وهى محـاسبة قـبل العمل والمحاسـبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير.

قال تعالى: ﴿واعلموا أن الله يعلـم ما فى أنفسكم فـاحذروه﴾[2].

وهذا للمستـقبل وكل نظر فى كثرة ومـقدار لمعرفة زيادة ونقـصان يسمى محاسبة فالنظر فيما بين يدى العبد فى نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال تعالى: ﴿يا أيهـا الذين آمنوا إن ضـربتم فى سبيل الله فتبينوا﴾[3]. وقال تعـالى: ﴿يا أيهـا الذين آمنوا إذا جـاءكم فـاسق بنبأ فتبينوا﴾[4]. وقال تعالى: ﴿ولقد خلـقنا الإنسان ونعلم مـا توسوس به نفسه﴾[5]. ذكر ذلك تحذيراً وتنبيهًا للاحتراز منه فى المستقبل...

وروى عبادة بن الصمات أنه عليـه الصلاة والسـلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه «إذا أردت أمراً فتدبر عاقبـته فإن كان رشداً فأمضه وإن كان غيًا فانته عنه».

وقال بعض الحكـماء: إذا أردت أن يكون العقل غـالبًا للهـوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العـاقبة فإن مكث الندامة فى القلب أكثر من مكث خـفة الشهـوة وقال لقـمان: إن المؤمن إذا أبصـر العاقبـة أمن الندامة.

(١) سورة الذاريات الآية ٥٥.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٥.
(٣) سورة النساء الآية ٩٤.
(٤) سورة الحجرات الآية ٦.
(٥) سورة ق الآية ١٦.

وروى شـداد بن أوس عنه ﷺ أنه قـال: «الكيس من دان نفـسه وعـمل لما بعد الموت، والأحـمق من أتبع نفـسه هواها وتمنى على الله الأمانى».

ودان نفسه: أى حاسبها ويوم الدين: يوم الحساب.

وقوله أئنا لمدينون: أى لمحـاسبون. وقال عـمر -رضى الله عنه-: حاسبوا أنفـسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتهـيئوا للعرض الأكبر.

وكتب إلـى أبى موسى الأشـعرى حاسب نفـسك فى الرخـاء قبل حساب الشدة. وقال لكعب كيف تجدها فى كتاب الله؟ قال: ويل لديان الأرض من ديان السماء، فعلاه بالدرة وقـال إلا من حاسب نفـسه. فقال كعب: يا أمير المؤمنين إنها إلى جنبهـا فى التوراة ما بينهما حرف إلا من حاسب نفـسه وهذا كله إشارة إلى المحاسـبة للمستـقبل إذ قال: من دان نفسـه يعمل لمـا بعد الموت ومـعناه وزن الأمور أولاً وقـدرها ونظر فيـها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها.

(المرابطة الثانية المراقبة)

إذا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخـوض فى الأعمال وملاحظتـها بالعين الكالئة فـإنها إن تركت طغت وفسدت ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها.

أما الفـضيلة: فقد سـأل جبريل -عليه السـلام- الرسول ﷺ عن الإحسان فـقال: «أن تعبد الله كـأنك تراه» وقال عليه السـلام «اعبد الله كأنك تراه فـإن لم تكن تراه فإنه يراك» وقد قـال تعالى ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾[2] وقال الله تعالى: ﴿إن الله عليكم رقيبًا﴾[3] وقال تعالى: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾[4].

(١) سورة الرعد الآية ٣٣.
(٢) سورة العلق الآية ١٤.
(٣) سورة النساء الآية ١.
(٤) سورة المعارج الآيتان [٣٢ ، ٣٣].

وقال ابن المبارك لرجل: راقب الله تعالى فسأله عن تفسيره فقال: كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل. وقال عبد الواحد بن زيد: إذا كان سيدى رقيبًا علىّ فلا أبالى بغيره». وقال أبو عثمان المغربى: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه فى هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم. وقال ابن عطاء: أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات. وقال الجريري: أمرنا هذا مبنى على أصلين أن تلزم نفسك المراقبة لله -عز وجل- ويكون العلم على ظاهرك قائمًا. وقال أبوعثمان: قال لى أبو حفص: إذا جلست للناس فكن واعظًا لنفسك وقلبك ولا يغرنك اجتماعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك.

وحكى أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه فقال له بعض أصحابه كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ؟ فدعا بعدة طيور وناول كل واحد منهم طائرًا وسكينًا وقال: ليذبح كل واحد منكم طائره فى موضع لايراه أحد ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم، فرجع كل واحد بطائره مذبوحًا ورجع الشاب والطائر حى فى يده فقال: مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك: فقال: لم أجد موضعًا لا يرانى فيه أحد إذ الله مطلع علىّ فى كل مكان. فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا: حق لك أن تكرم.

وحكى أن زليخا لما خلت بيوسف -عليه السلام- قامت فغطت وجه صنم كان لها فقال يوسف: مالك أتستحين من مراقبة جماد ولا تستحين من مراقبة الملك الجبار. وحكى عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت: له ألا تستحى فقال: ممن أستحى؟ وما يرانا إلا الكواكب، قالت: فأين مكوكبها؟

وقال رجل للجنيد: بم أستعين على غض البصر، فقال: بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه.

وقال الجنيد: إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه

-عز وجل- وعن مالك بن دينار قال: جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة قيل له: ومن يسكنها؟ قال يقول الله -عز وجل- إنما يسكن عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبونى والذين انثنت أصلابهم من خشيتى وعزتى وجلالى إنى لأهم أن أعذب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتى صرفت عنهم العذاب. وسئل المحاسبى عن المراقبة فقال: أولها علم القلب بقرب الرب تعالى. وقال المرتعش: المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة. ويروى أن الله تعالى قال لملائكته: أنتم موكلون بالظاهر، وأنا الرقيب على الباطن.

وقال محمد بن على الترمذى: اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه.

وقال سهل: لم يتزين القلب بشىء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان.

وسئل بعضهم عن قوله تعالى: ﴿رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه﴾[1]. فقال معناه ذلك لمن راقب ربه -عز وجل- وحاسب نفسه وتزود لمعاده. وسئل ذو النون بم ينال العبد الجنة؟

فقال: بخمس: استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة الله تعالى فى السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل
خلوت ولكن قل علىّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة
ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

(١) سورة البينة الآية ٨.

ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب
وأن غداً للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن على: عظنى، فقال: لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت.

وقال سفيان الثورى: عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة، وقال فرقد السنجى إن المنافق ينظر فإذا لم ير أحداً دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى، وقال عبدالله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- إلى مكة فغرسنا فى بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال: يا راعى بعنى شاة من هذه الغنم، فقال: أنا مملوك، فقال: قل لسيدك: أكلها الذئب، قال: فأين الله؟ قال: فبكى عمر ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه، وقال: أعتقتك فى الدنيا هذه الكلمة، وأرجو أن تعتقك فى الآخرة.

(بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها)

اعلم أن حقيقة المراقبة هى ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه قمت احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال: إنه يراقب فلاناً ويراعى جانبه ويعنى بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالاً فى الجوارح أما الحالة فهى مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه وأما المعرفة التى تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وأن سر القلب فى حقه مكشوف كما أنه ظاهر البشرة للخلق مكشوف، بل أشد من ذلك فهذه المعرفة إذا صارت يقيناً أعنى أنها خلت على الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته، فرب علم لا شك فيه ولا يغلب على القلب كالعلم

بالموت، فإذا استولت على القلب استعجزت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين، فمراقبتهم على درجتين:

الدرجة الأولى: مراقبة المقربين من الصديقين وهى مراقبة التعظيم والإجلال، وهو أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال ومنكسراً تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلاً وهذه مراقبة لا نطول النظر فى تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب، أما الجوارح فإنها تتعطل على التلفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة لها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت فى حفظها على سعت السداد بل يسدد الرعية من ملك كلية الراعى، والقلب هو الراعى فإذا صار مستغرقاً بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف وهذا هو الذى صار همه هماً واحداً فكفاه الله سائر الهموم، ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به وقد يمر على ابنه مثلاً فلا يكلمه حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك فقال له عاتبه: إذا مررت بى فحركنى ولا تستبعد هذا فإنك تجد نظر هذا فى القلوب المعظمة لملوك الأرض حتى أن خدم الملك قد لا يحسون بما يجرى عليهم فى مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم بل قد يشتمل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص الرجل فى الفكر فيه ويمشى فربما يجاوز الموضع الذى قصده وينسى الشغل الذى نهض له وقد قيل لعبدالواحد بن زيد: هل تعرف فى زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله من الخلق؟ فقال: ما أعرف إلا رجلاً سيدخل عليكم الساعة فما كان إلا سريعاً حتى دخل عتبة الغلام فقال له عبدالواحد بن زيد: من أين جئت يا عتبة فقال: موضع كذا وكان طريقه على السوق، فقال: من لقيت فى الطريق فقال: ما رأيت أحداً.

ويروى عن يحيى بن زكريا -عليهما السلام- أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له: لم فعلت هذا؟ فقال: ما ظننتها إلا جداراً، وحكى عن بعضهم أنه قال: مررت بجماعة يرامون وواحد جالس بعيداً عنهم فتقدمت إليه فأردت أن أكلمه فقال: ذكر الله تعالى أشهى، فقلت: أنت وحدك، فقال: معى ربى وملكانى، فقلت: من سبعة من هؤلاء فقال: من عز الله له، فقلت: أين الطريق؟ فأشار نحو السماء، وقام ومشى وقال أكثر خلقك شاغل عنك فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا فيه فهو لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فإنها لا تتحرك إلا بما هو فيه.

ودخل الشبلى على ابن الحسين النوري وهو معتكف فوجده ساكتاً حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شيء فقال له: من أين أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال: سنور كانت لنا فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأسى الحجر لا تتحرك لها شعرة، وقال أبو عبدالله بن خفيف: خرجت من مصر أريد الرملة للقاء ابن على الروذبارى، فقال لى عيسى بن يونس المصرى المعروف بالزاهد: إنه فى صور شاباً وكهلاً قد اجتمعا على حال المراقبة فلو نظرت إليهما نظرة لعلك تستفيد منه فدخلت صور وأنا جائع عطشان وفى وسطى خرقة وليس على كتفى شيء فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدين مستقبلى القبلة، فسلمت عليهما فما أجابانى فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب، فقلت: نشدتكما بالله الا رددتما على السلام فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلى وقال: يا بن خفيف الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير يابن خفيف ما أقل شغلك حتى تفرغ إلى لقائنا قال فأخذ بكليتى ثم طأطأ رأسه فى المكان، فبقيت عندها حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعى وعطشى وعنائى فلما كان وقت العصر قلت عظنى فرفع رأسه إلىّ وقال: يابن خفيف نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة فبقيت عندهما ثلاثة

أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئاً ولا شربا فلما كان اليوم الثالث قلت فى سرى الحقهما ان يعظانى لعلى أن أنتفع بعظتهما فرفع الشاب رأسه، وقال: يابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيبته على قلبك يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله والسلام قم عنا فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك.

الدرجة الثانية: مراقبة الورعين من أصحاب اليمين، وهم قوم على يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم على قلوبهم ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو من المراقبة، نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجبون إلا بعد التثبت منه ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به فى القيامة فإنهم يرون الله فى الدنيا مطلعاً عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات فإنك فى خلوتك قد تتعاطى أعمالاً فيحضرك صبى أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحى منه فتحسن جلوسك وتراعى أحوالك لا عن جلال وتعظيم بل عن حياء فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فإنها تهيج الحياء فيك وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلاً به لا حياء منه، فهكذا تختلف مراتب العباد فى مراقبة الله تعالى، ومن كان فى هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته، وبالجملة جميع اختياراته، وله فيها نظران: نظر قبل العمل، ونظر فى العمل. أما قبل العمل فلينظر أن ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة أو هو من هوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق فإن كان لله تعالى أمضاه وإن كان لغير الله استحيا من الله وأنكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه

وهمه به وميله إليه وعرفها سوء فعلها وسعيها فى فضيحتها وإنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته وهذا التوقف على بداية الأمور إلى حد البيان واجب محتوم لا محيص لأحد عنه فإنه فى الخبر أن ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين، الديوان الأول: لم. الثانى: كيف. الثالث: لمن .

ومعنى لم: أى لم فعلت هذا، أكان عليك أن تفعله لمولاك، أو ملت إليه بشهوتك وهواك فإن سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثانى فقيل له: كيف فعلت هذا؟ فإن لله فى كل عمل شرطًا وحكمًا لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم فيقال له: كيف فعلت أبعلم محقق أم بجهل وظن؟ فإن سلم من هذا الشر. الديوان الثالث: وهو المطالبة بالإخلاص فيقال له: لمن عملت الوجه الله خالصًا وفاء بقولك لا إله إلا الله فيكون أجرك على الله أو لمرآة خلق مثلك فخذ أجرك منه إن عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك وإن عملت لغيرى فقد استوجبت مقتى وعقابى إذ كنت عبدا لى تأكل رزقى وتترفه بنعمتى ثم تعمل لغيرى أما سمعتنى أقول: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾(١) ﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقًا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه﴾(٢). ويحك أما سمعتنى أقول: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾(٣) فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب وأعد للسؤال جوابًا وليكن الجواب صوابًا فلا يبدئ ولا يعيد إلا بعد التثبيت ولا يحرك جفنا ولا أنملة إلا بعد التأمل وقد قال النبى ﷺ لمعاذ: «إن الرجل ليسئل عن كحل عينيه وعن فته الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه».

وقال الحسن: كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت فإن كان لله أمضاه.

---

(١) سورة الأعراف [الآية ١٩٤]. (٢) سورة العنكبوت [الآية ١٧].

(١) سورة الزمر [الآية ٣].

وقال الحسن: -رحمه الله تعالى- عبدًا وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر وقال فى حديث سعد حين أوصاه سلمان (اتق الله عند همك إذا هممت)

وقال محمد بن على: إن المؤمن وقاف متأن يقف عند همه ليس كما طلب ليل.

فهذا هو النظر الأول فى هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان فمتى لم يعرف نفسه وربه وعدوه أبلى ولم يعرف ما يوافقه هواه وله يمين بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه فى نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته فلا يسلم فى هذا المراقبة، بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ولا تظن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر هيهات بل طلب العلم فريضة على كل مسلم، ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم؛ لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ومواضع الغرور فيتقى ذلك والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه فلا يزال الجاهل فى تعب والشيطان منه فى فرح وشماتة، فنعوذ بالله من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران.

فحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة فيتوقف عن الهم وعن السعى حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أو هو لهوى النفس فتبقيه ويزجر القلب من الفكر فيه وعدلهم به فإن الخطوة الأولى فى الباطن إذا لم تدفع أورثت الرغبة والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد والقصد يورث العقل والفعل يورث البوار والمقت فينبغى أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر فإن جميع ما وراءه يتبعه، مهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر فى ذلك بنور العلم ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه

فيستضىء بنور علماء الدين وليفر من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشد فقد أوصى الله تعالى إلى داود عليه السلام:

«لا تسأل عنى عالمًا أسكره حب الدنيا فيقطعك من محبتى أولئك قطاع الطريق على عبادى» فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى فإن استفاء أنوار القلوب حضرة الربوبية، فكيف يستضىء بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغيضها ومقتيها وهى شهوات الدنيا فلتكن همة المريد أولاً فى أحكام العلم أو فى طلب عالم معرض عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات».

جمع بين الأمرين وهما مثلا زمان حقًا فمن ليس له عقل وازع من الشهوات فليس له بصر ناقد فى الشبهات، ولذلك قال عليه السلام: «من قارف ذنبًا فارقه عقل لا يعود إليه أبدًا» فما قدر العقل الضعيف الذى سعد الأدمى به حتى يعمد إلى محوه ومحقه بمقارفة الذنوب ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست فى هذه الأعمار فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط بين الخلق فى الخصومات الثائرة فى اتباع الشهوات وقالوا: هذا هو الفقه وأخرجوا هذا العلم الذى هو فقه الدين عن جملة العلوم وتجردوا لفقه الدنيا الذى ما قصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه وفى الخبر.

(أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه المتثبت)

ولهذا توقف طائفة من الصحابة فى القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبى وقاص وعبدالله بن عمر

---

(١) سورة الإسراء الآية ٣٦.

وأسامة، ومحمد بن مسلمة، وغيرهم، فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعًا لهواه معجبًا برأيه وكان ممن وصفه رسول الله ﷺ إذا قال:

(فإذا رأيت شحًا مطاعًا وهوى متبعًا وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك).

وكل من خاض فى شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى **﴿ولا تقف ماليس لك به علم﴾**[(١)].

وقوله عليه السلام: (إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث).

وأراد به ظنًا بغير دليل كما يستفتى بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصديق -رضى الله عنه- (اللهم أرنى الحق حقًا وارزقنى اتباعه وأرنى الباطل باطلاً وارزقنى اجتنابه ولا تجعله متشابهًا على فأتبع الهوى).

وقال عيسى عليه السلام: (الأمور ثلاثة أمر استبان رشده فاتبعه، وأمر استبان غيه فاجتنبه، وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه).

وقد كان من دعاء النبى ﷺ:

(اللهم إنى أعوذ بك أن أقول فى الدنيا بغير علم).

فأعظم نعمة على عباده هو العلم وكشف الحق والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتنانًا على عبده: **﴿وكان فضل الله عليك عظيما﴾**[(٢)] - وأراد به العلم وقال تعالى: **﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾**[(٣)]. **﴿إن علينا للهدى﴾**[(٤)].

وقال تعالى: **﴿ثم إن علينا بيانه﴾**[(٥)].

وقال: **﴿وعلى الله قصد السبيل﴾**[(٦)].

---

(١) سورة لأسراء الآية [٣٦]. (٢) سورة النساء الآية ١١٣.
(٣) سورة الأنبياء الآية ٧. (٤) سورة الليل الآية ٧.
(٥) سورة القيامة الآية ٦. (٦) سورة النحل الآية ٩.

وقال على -كرم الله وجهه-: الهوى شريك العمى ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ونعم طارد الهم اليقين وعاقبة الكذب الندم وفى الصدق السلامة رب بعيد أقرب من قريب وغريب من لم يكن له حبيب صديق من صدق غيبه ولا يعرفك من حبيب سوء ظن نعم الخلق التكرم والحياء سبب إلى كل جميل وأوثق العمر التقوى، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك والرزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن لم تأته أتاك.

وإن كنت جازعاً على ما أصيب مما فى يديك فلا تجزع على مالم يصل إليك واستدل على مالم يكن بما كان قائمًا الأمور أشباه والمرء يسره مالم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحًا وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفًا وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما خلفت وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت وغرضًا من نقل هذه الكلمات قوله، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة.

فإذن النظر الأول للمراقب نظره فى الهم والحركة أهى لله أم للهوى وقد قال ﷺ: «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف فى الله لومة لائم ولا يرائى بشىء من علمه وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا».

وأكثر ما ينكشف له فى حركاته أن يكون مباحًا ولكن لا يعنيه فيتركه لقوله ﷺ «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

النظر الثالث: للمراقبة عند الشروع فى العمل وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه، ويحسن النية فى إتمامه، ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكن وهذا ملازم له فى جميع أحواله فإنه لا يخلو فى جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله تعالى فى جميع

ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب.

فإن كان قاعدًا مثلاً فينبغى أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ﷺ: «خير المجالس ما استقبل به القبلة».

ولا يجلس متربعًا إذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليه، قال إبراهيم بن أدهم -رحمه الله-: جلست مرة متربعًا فسمعت هاتفًا يقول: هكذا تجالس الملوك، فلم أجلس بعد ذلك متربعًا وإن كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التى ذكرناها فى مواضعها فكل ذلك داخل المراقبة بل لو كان فى قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة.

فإذن لا يخلو العبد إما أن يكون فى طاعة أو فى معصية أو فى مباح فمراقبته فى الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات وإن كان فى معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر وإن كان فى مباح فمراقبته بمراعاة الأدب.

ثم بشهود المنعم فى النعمة وبالشكر عليها ولا يخلو العبد فى جملة أحواله عن بلية لابد له من الصبر عليها ونعمة،لابد له من الشكر عليها.

وكل ذلك من المراقبة بل لا ينفك العبد فى كل حال من فرض الله تعالى ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته، ولكل واحد من ذلك حدود لابد من مراعاتها بدوام المراقبة.

فينبغى أن يتفقد العبد نفسه فى جميع أوقاته فى هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغًا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغى أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون والأرباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى: ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾[1].

وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة فإن الساعات ثلاث: ساعة مضت لا تعب فيها على العبد.

(١) سورة القصص الآية ٧٧.

كيفما انقضت فى مشقة أو رفاهية، وساعة مستقبلية لم تأت بعد لايدرى العبد أيعيش إليها أم لا ولا يدرى ما يقضى الله فيها، وساعة راهنة ينبغى أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة وإن أتته الساعة الثانية استوفى فى حقه منها كما استوفى من الأول ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون فى وقته كأنه فى آخر أنفاسه فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدرى وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغى أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر -رضى الله عنه- من قوله عليه السلام.

(لا يكون المؤمن ظاعنًا إلا فى ثلاث: تزود لمعاد، أو مرقة لمعاش، أو لذة فى غير محرم).

وما روى عنه أيضًا فى معناه (وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكر فيها فى صنع الله وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب).

فإن هذه الساعة عونًا على بقية الساعات ثم هذه الساعات التى هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغي أن يخلو عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر، فإن الطعام الذى يتناوله فيلاقيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل مركز من أعمال الجوارح والناس فيه أقسام:

قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار فينظرون فى عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه كما فصلنا بعضه فى كتاب الشكر، وهذا مقام ذوى الألباب وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهية.

ويلاحظون وجه الاضطرار إليه ويودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته وهذا مقام الزاهدين، وقوم يرون فى الصفة الصانع ويترقون بها إلى صفات الخالق فتكون مشاهدة ذلك

سببًا لتذكر أبواب من الفكر تتفتح عليهم بسببه، وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيعه نسى الصنعة واشتغل قلبه بالصانع، وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله -عز وجل- فله فى النظر منه إلى الصانع مجال رحب إذا فتحت له أبواب الملكوت، وذلك عزيز جداً.

وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص فيتآسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جملته ويذجون منه ما لا يوافق هواهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطبيخ والطباخ ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى.

وإن من ذم شيئًا خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله ولذلك قال النبى ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر».

المرابطة الثالثة: محاسبة النفس بعد العمل

ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها

أما الفضيلة فقد قال تعالى **﴿يأيها الذين آمنو اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾**(1) وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال ولذلك قال عمر -رضى الله تعالى عنه-: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وفى الخبر أنه عليه السلام جاءه رجل فقال: يا رسول الله أوصنى، فقال: استوصيت أنت، فقال: نعم، قال: إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشد فأمضه وإن كان غيًا فانته عنه»

وفى الخبر ينبغى للعاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه وقال تعالى **﴿وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾**(2) والتوبة نظر فى الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه وقد قال النبى ﷺ: «إنى لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه فى اليوم مائة مرة».

وقال الله تعالى: **﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾**(3).

---

(1) سورة الحشر الآية ١٨. (2) سورة النور الآية ٣١.
(3) سورة الأعراف الآية ٢٠١.

وعن عمـر -رضى الله عنه- إنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه: ماذا فعلت اليوم، وعن ميمون بن مهران أنه قال: لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه والشريكان يتحاسبان بعد العمل.

وروى عن عائشة -رضى الله تعالى عنها- أن أبا بكر -رضوان الله عليه- قال لها عن الموت:

ما أحد من الناس أحب إلىّ من عمر ثم قال لها: كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قال، فقال: لا أحد أعز علىّ من عمر فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها.

وحديث أبى طلحة حيث شغله الطائر فى صلاته فتدبر ذلك فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندمًا ورجاء للعوض مما فاته».

وفى حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب فقيل له: يا أبا يوسف قد كان فى بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا فقال: أردت أن أجرب نفسى هل تنكره وقال الحسن: المؤمن قوام على نفسه يحاسبها الله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ثم فسر المحاسبة.

فقال: إن المؤمن يفجؤه الشىء يعجبه فيقول: والله إنك لتعجبنى وإنك من حاجتى ولكن هيهات حيل بينى وبينك، وهذا حساب قبل العمل، ثم قال ويفرط منه الشىء فيرجع إلى نفسه فيقول: ماذا أردت بهذا والله لا أعذر بهذا والله لا أعود لهذا أبدًا إن شاء الله.

وقال أنس بن مالك: سمعت عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- يومًا وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطًا فسمعته يقول وبينى وبينه جدار وهو فى الحائط عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله أو ليعذبنك وقال الحسن فى قوله تعالى:

﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾[1] قال: لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ماذا أردت بكلمتى؟ ماذا أردت بأكلتى؟ ماذا أردت بشربتى؟ والفاجر يمضى قدمًا لا يعاتب نفسه، وقال مالك بن دينار -رحمه الله تعالى- رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا، ألست صاحبة كذا ثم ذمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائدًا وهذا من معاتبة النفس كما سيأتى فى موضعه وقال ميمون بن مهران:

التقى أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح وقال إبراهيم التيمى:

مثلت نفسى فى الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسى فى النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلالها فقلت لنفسى: يا نفس أى شىء تريدين فقالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحًا، قلت: فأنت فى الأمنية فاعمل، وقال مالك بن دينار:

سمعت الحجاج يخطب وهو يقول:

رحم الله امرءً حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره رحم الله امرءً آخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به، رحم الله امرءً نظر فى مكياله، رحم الله امرءً نظر فى ميزانه فمازال يقول حتى أبكانى.

وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء، وكان يجىء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار، ثم يقول لنفسه يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا، ما حملك على ما صنعت يوم كذا.

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبد كما يكون له وقت فى أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغى أن يكون له فى آخر النهار ساعة يطالب

سورة القيامة الآية (٢).

فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار فى الدنيا مع الشركاء فى آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصًا منهم على الدنيا وخوفًا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم فى فواته ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أيامًا قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به جلب الشقاوة والسعادة أبد الآباد ما هذه المآصلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك، ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر فى رأس المال وفى الربح والخسران ليثبت له الزيادة من النقصان فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه فى المستقبل.

فكذلك رأس مال العبد فى دينه الفرائض وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصى وموسم هذه التجارة جلبة النهار ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولاً فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها فى مثلها وإن فوتها من أجلها طالبها بالقضاء وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفى منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يفتش فى حساب الدنيا عن الجنيه والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يعبث فى شىء منها فينبغى أن يتقى غيبة النفس ومكرها فإنها خداعة ملبسة مكارة فليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طوال نهاره وليتكفل بنفسه من الحساب ما لا سيتولاه غيره فى صعيد القيامة وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه حتى عن سكوته أنه لم سكت وعن سكونه لم سكن؟

فإذا عرف مجموع الواجب على النفس وصلح عنده قدر أدى الواجب فيه كان ذلك القدر محسوبًا له فيظهر له الباقى على نفسه فليثبته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه.

كما يكتب الباقى الذى على شريكه على قلبه وفى جريدة حسابه ثم النفس غريم يمكن أن يستوفى منه الديون أما بعضها فبالغرامة والضمان وبعضها يرد عينه وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ولا يمكن

شىء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقى عن الحق الواجب عليه، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء ثم ينبغى أن يحاسب النفس على جميع العمر يومًا يومًا وساعة ساعة.

فى جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة كما نقل عن توبة بن الصمة وكان بالرقة وكان محاسبا لنفسه فحسب يوما فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فإذا هى واحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال: يا ويلتى ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب فكيف وفى كل يوم عشرة آلاف ذنب ثم خر مغشيًا عليه فإذا هو ميت فسمعوا قائلاً يقول: يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى، فهكذا ينبغى أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح فى كل ساعة ولو رمى العبد بكل معصية حجرًا فى داره لامتلأت داره فى مدة يسيرة قريبة من عمره ولكن يتساهل فى حفظ المعاصى والملكان يحفظان عليه ذلك أحصاه الله ونسوه.

المرابطة الرابعة
فى معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير فى حق الله تعالى فلا ينبغى أن يهملها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصى وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها وكان ذلك سبب هلاكها، بل ينبغى أن يعاقبها فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغى أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى غير محرم ينبغى أن يعاقب العين بمنع النظر، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته، هكذا كانت عادة سالكى طريق الآخرة.

فقد روى عن منصور بن إبراهيم أن رجلاً من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست.

وروى أنه كان فى بنـى إسرائيل رجل يتعـبد فى صومـعتـه فمكث كذلك زمانًا طويلاً فـأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فافـتتن بها وهم بها فأخرج رجله لينزل إليـها فأدركه الله بسابقة فـقال: ما هذا الذى أريد أن أصنع؟ فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فندم فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومـعة قال: هيهـات هيهات رجلى خـرجت تريد أن تعصى الله تعـود معى فى صـومعـتى لا يكون والله ذلك أبداً فتـركهـا معلقـة فى الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت فشكر الله له ذلك، وانزل فى بعض كتبه ذكره، ويحكى عن الجنيد قال: سمـعت ابن الكريبى يقول: أصـابتنى ليلة جنابة فأصبحت ان أغـتسل وكانت ليـلة باردة فوجدت فى نفـسى تأخراً وتقـصيـراً فحدثتـنى نفسى بالتأخـير حـتى أصبح وأسـخن الماء أقرأ أو أدخل الحمـام ولا أشق على نفسى فـقلت وا عجباه أنا أعـامل الله فى طول عمرى، فـيجب له على حق فلا أجد فى المسـارعة وأجد الوقوف والتأخـر آليت ان لا اغتسل إلا فى مـرقعـتى هذه وآليت ان لا انزعهـا ولا أعصـرها ولا أجفـفهـا فى الشمس.

ويحكى أن غذوان وأبا مـوسى كانا فى بعض مغـازيهما فـتكشفت جارية فنظر إليـها غذوان فرفع يده فـلطم عينيه حتى بقـرت وقال: إنك بلحاظة إلى ما يضـرك ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امـرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طوال حـياته فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش.

ويحكى أن حسـان بن سنان مر بغـرفة فقال: مـتى بنيت هذه، ثم أقبـل على نفسـه فقـال: تسألين عـما لا يعنيك لأعـاقبنك بصـوم سنة فصامها.

وقال مالك بن ضغيم: جاء رباح القيسى يسأل عن أبى بعد العصر فقلنا: إنه نائم.

فقال: نوم هذه الساعة هذا وقت نوم؟

ثم ولى منصـرفًـا فأتبـعناه رسـولاً وقلنا له: ألا نوقظـه لك فجـاء الرسول وقال: هو أشغل من أن يفهم عنى شـيئا أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفـسه ويقول: أقلت وقت نوم هذه السـاعة أفكان هذا عليك ينام الرجل مـتى شـاء وما يدريك أن هذا ليس وقـت نوم تتكلمين بما لا تعلمين، أما إن لله على عهداً لا أنقضه أبداً لا أوسدك الأرض لنوم حولاً إلا لمرض حـائل أو لعقل زائل سـوأة لك أمـا تسـتحين كم توبخين وعن غيك لا تنتهين.

قال: وجـعل يبكى وهو لا يشعر بمكانى فلمـا رأيت ذلك انصرفت وتركته.

ويحكى عن تميم الدارى أنه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد فقام سنة لم ينم فيها عقوبة الذى صنع.

وعن طلحة -رضى الله عنه قال-:

انطلق رجل ذات يوم فـنزع ثيـابه وتمرغ فى الرمـضـاء فكان يقـول لنفسه: ذوقى ونـار جهنم أشد حرًا أجيـفة بالليل بطالة بالنهار فـبينما هو كذلك إذ أبصر النبى ﷺ فى ظل شجرة فأتاه فقال: غلبتنى نفـسى فقال له النبى ﷺ: ألم يكن لك بد من الذى صنعت أمـا لقد فـتحت لك أبواب السمـاء ولقد باهى الله بك الملائكة ثم قـال لأصحابه تـزودوا من أخيكم فجعـل الرجل يقول له: يا فلان ادع لى يا فلان ادع لى فـقال النبى ﷺ عمهم فقال: اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم فجعل النبى ﷺ يقول: اللهم سدده، فقال الرجل: اللهم اجعل الجنة مآبه.

وقال حذيفة بن قتادة: قيل لرجل كيف تصنع بنفسك فى شهواتها؟ فقال: ما على وجه الأرض نفس أبغض إلىّ منها، فكيف أعطيها شهواتها ودخل بن السمـاك على داود الطائى حين مات وهو فى بيتـه على التراب فقـال: يا داود سجنت نفـسك قبل أن تـسجن، وعذبت نفـسك قبل أن تعذب فاليوم ترى ثواب ما كنت تعمل له.

وعن وهب بن منبه

أن رجلاً تعبد زمانًا ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة فقام سبعين سبتًا يأكل فى كل سبت إحدى عشرة تمرة، ثم سأل حاجته فلم يعطها فرجع إلى نفسه، وقال: منك أتيت لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك فنزل إليه ملك وقال: يا بن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التى مضت وقد قضى الله حاجتك.

وقال عبدالله بن قيس: كنا فى غزاة لنا فحضر العدو فصيح فى الناس فقاموا إلى المصاف فى يوم شديد الريح وإذا رجل أمامى وهو يخاطب نفسه ويقول: أى نفسى ألم أشهد مشهد كذا وكذا؟ فقلت لى: أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت، ألم أشهد مشهد كذا وكذا؟ فقلت لى: أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك فقلت: لأرفضه اليوم فرضته فحمل الناس على عدوهم فكان فى أوائلهم ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا فكان فى موضعه حتى انكشفوا مرات وهو ثابت يقاتل فوالله مازال ذاك رأيه حتى رأيته سريعًا فغددت به ستين أو أكثر من ستين طعنة وقد ذكرنا حديث أبى طلحة لما اشتغل قلبه فى الصلاة بطائر فى حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك، وأن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول ماذا عملت اليوم؟

وعن مجمع أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام فى الدنيا وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه: ما حملك على أن صنعت يوم كذا كذا.

وأنكر وهيب بن الورد شيئًا على نفسه فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه ويحك إنما أريد بك الخير ورأى محمد بن بشر داود الطائى وهو يأكل عند إفطاره خبزًا بغير ملح فقال له: لو أكلته بملح فقال: إن نفسى لتدعونى إلى الملح منذ سنة ولا ذاق داود ملحًا مادام فى الدنيا.

فهكذا كانت عقوبة أولى الحزم لأنفسهم والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير فى أمر وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار ويبغوا عليك ثم تهمل نفسك وهى أعظم عدو لك وأشد طغيانًا عليك وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة وأن فيه النعيم المقيم الذى لا آخر له ونفسك هى التى تنغص عليك عيش الآخرة فهى بالمعاقبة أولى من غيرها.

المرابطة الخامسة المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغى أن يعاقبها بالعقوبات التى مضت وإن رآها تتوانى بحكم لكسل فى شىء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغى أن يؤديها بتثقيل الأوراد عليها ويلزمها فنونًا من الوظائف جبرًا لما فات منه وتداركًا لما فرط فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حيث فاتته صلاة العصر فى جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة فى جماعة أحيا تلك الليلة وأخر ليلة صلاة

المغرب حتى طلع كوكبًا فأعتق رقبتين وفات ابن أبى ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة وكان بعضهم يجعل له على نفسه صوم سنة أو الحج ماشيًا أو التصدق بجميع ماله كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها، فإن قلت إن كانت نفسى لا تطاوعنى على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فى سبيل معالجتها.

فأقول: سبيلك فى ذلك أن تسمعها ما ورد فى الأخبار من فضل المجتهدين ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد فى العبادة.

فتلاحظ أقواله وتقتدى به وكان بعضهم يقول: إذا اعترتنى فترة فى العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعًا، إلا أن هذا العلاج قد تعذر إذ قد فقد فى هذا الزمان من يجتهد فى العبادة اجتهاد الأولين، فينبغى أن يعدل من المشاهدة إلى السماع فلا شىء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد وقد انقضى تعبهم وبقى ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدى بهم فيمتع نفسه أيامًا قلائل بشهوات مكدرة ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد نعوذ بالله تعالى من ذلك ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضلهم ما يحرك رغبة المريد فى الاجتهاد واقتداء بهم فقد قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أقوامًا يحسبهم الناس مرضى وما هم بمرضى».

قال الحسن: أجهدتهم العبادة قال الله تعالى: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾[1] قال الحسن يعملون ما عملوا من أعمال البر

(1) سورة المؤمنون الآية ٦٠ .

ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله، وقال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن طال عمره وحسن عمله». ويروى أن الله تعالى يقول لملائكته: ما بال عبادى مجتهدين فيقولون: إلهنا خوفتهم شيئًا فخافوه وشوقتهم إلى شىء فاشتاقوا إليه، فيقول الله تبارك وتعالى: فكيف لو رآنى عبادى لكانوا أشد اجتهادا وقال الحسن: أدركت أقوامًا وصحبت طوائف منهم ما كانوا يفرحون بشىء من الدنيا أقبل ولا يتأسفون على شىء منها أدبر ولهى كانت أهون فى أعينهم من هذا التراب الذى تطؤونه بأرجلكم إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوى له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ولا جعل بينه وبين الأرض شيئًا قط وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم إذا جنهم الليل قيام على أطرافهم يفترشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم فى فكاك رقابهم إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا فى شكر وسألوا الله أن يتقبلها وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم والله مازالوا كذلك، وعلى ذلك، ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة.

ويحكى أن قومًا دخلوا على عمر بن عبدالعزيز يعودونه فى مرضه وإذا فيهم شاب ناحل الجسم فقال عمر له: يا فتى ما الذى بلغ بك ما أرى؟ فقال: يا أمير المؤمنين أسقام وأمراض، فقال: سألتك بالله ألا صدقتنى، فقال: يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة وصغر عندى زهرتها وحلاوتها واستوى عندى ذهبها وحجرها وكأنى أنظر إلى عرش ربى والناس يساقون إلى الجنة والنار فأظمأت لذلك نهارى وأسهرت ليلى وقليل حقير كل ما أنا فيه من جنب ثواب الله وعقابه.

نعم بكيت دمًا فقلت له: علـى ماذا بكيت الدموع فقـال: على تخلفى عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ما صلحت لى الدموع قال: فرأيته بعد موته فى المنام، فقلت: ما صنع الله بك؟ قال: غفـر لى قلت له: فماذا صنع فى دموعك فـقال: قربنى ربى -عـز وجل- وقال لى: يا فـتح الدمـوع على مـاذا، قلت: يا رب على تخلفى عن وجب حقك، فقال: والدم على ماذا؟ قلت: على دموعى أن لا تصلح لى فقال لى: يا فتح مـا أردت بهذا كله، وعزتى وجلالى لقد صعد حـافظاك أربعين سنة بصحيفـتك ما فيها خطيـئة وقيل: إن قومًا أرادوا سفرا فحـادوا عن الطريق فانتهوا إلى راهب منفرد بين الناس فنادوه فأشـرف عليهم صـومعة فـقالوا: يا راهب إنا قـد أخطأنا الطريق فكيف الطريق فـأومأ برأسه إلى الـسماء فعلم الـقوم ما أراد فـقالوا: يا راهب إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا؟

فـقال: سلوا ولا تـكثروا فـإن النهـار لن يرجع والعـمر لا يعـود والطالب حثيث.

فعـجب القوم من كـلامه فـقالوا: يا راهب علام الخلـق غدا عند مليكهم فـقال: على نيـاتهم فـقالوا: أوصنا. فـقال: تزودوا على قـدر سفركم فإن خير الزاد ما بلغ البغية ثم ارشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه فى صومعته.

وقال عبد الواحد بن زيد: مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديتـه يا راهـب فلم يجـبنى فناديته الـثانية فلم يجـبنى فناديتـه الثالثة فأشـرف على وقال: يا هذا مـا أنا براهب إنما الراهب من رهب الله فى

سمائه وعظمه فى كبريائه وصـبر على بلائه ورضى بقضائه وحمده على آلائه وشكره على نعمـائه وتواضع لعظمتـه وذل لعزته واستـسلم لقدرته وخضع لمهابته وفكر فى حسابه وعقـابه فنهاره صائم وليله قائم قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار فذلك هو الراهب وأما أنا فكلب عقـور حبست نفسى فى هذه الصـومعة عن الناس لئـلا أعقرهم فقلت: يا راهب فـما الذى قطع الخلق عن الله بعد أن عرفوه؟

فقال: يا أخى لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا وزينتها، لأنها محل المعاصى والذنوب والعـاقل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله من ذنبه، وأقبل على ما يقربه من ربه.

وقيل لداود الطائى: لو سرحت لحيـتك فقال: إنى إذن لفارغ وكان أويس القرنى يقـول: هذه ليلة الركوع فـيحيى الليل كله فى ركـعة، وإذا كانت الليلة الآتية قال هذه ليلة السجود.

وقيل لما تاب عتـبة الغلام كان لا يتهنأ بالطعام والشـراب فقالت له أمه: لـو رفقت بنفـسك قال: الرفق أجلبنـى دعينى أتعب قليـلاً وأتنعم طويلا، وحج مسروق فما نام قط إلا ساجدا.

وقال سفيان الثورى: عند الصباح يحمد القوم السرى وعند الممات يحمد القوم التقى.

وقـال عـبـد الله بن داود: كان أحـدهم إذا بلـغ أربعين سنة طوى فراشه أى كان لا ينام طول الليل وكـان كهمس بن الحسن يصلى كل يوم ألف ركعة ثم يقـول لنفسه: قومى يا مـأوى كل شر فلما ضعف اقـتصر على خمسـمائة ثم كان يبكى ويقول: ذهب نصف عـملى. وكانت ابنة

الربيع بن خيثم تقول له: يا أبت ما لى أرى الناس ينامون وأنت لا تنام، فيقـول: يا ابنتاه إن أباك يخاف البيـات ولما رأت أم الربيع ما يلقى الربيع من البكاء والسـهر نادته يا بنـى لعلك قتلت قـتيـلاً، قال: نعم يا أمـاه قالت: فمن هو حتى تطلب أهله فيـعفوا عنك فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك فيقول: يا أماه هى نفسى.

وعن عمـر بن أخت بشر بن الحرث قـال: سمعت خـالى بشر بن الحرث يقول لأمى: يا أختى جوفى وخـواصرى تضرب على فقالت له: أمـا يا أخى تأذن لى حـتى أصلح لك قليل حسـاء بكف دقـيق عندى تتحسـاه يرم جوفك فـقال لها: ويحك أخـاف أن يقول من أين لك هذا الدقيق؟ فلا أدرى ايش أقول فبكت أمه وبكى مـعها وبكيت معهم. قال عمر ورأت أمى ما ببشر من شدة الجوع وجعل يتنفس نفسًا ضعيفًا فقالت له أمى: يا أخى ليت أمك لم تلدنى فقد والله تقطعت كبدى مما أرى بك فسـمعتـه يقول لها وأنا: فليت أمى لم تلدنى وإذ ولـدتنى لم يدر ثديها على.

قال عمر: وكانت أمى تبكى عليه الليل والنهار وقال الربيع: مكانه حـتى صلى الظهر ثـم قال: إلى الصلاة حتى صـلى العصـر ثم جلس موضـعه حـتى صلى المغرب ثم ثبت مكانه حـتى العشـاء ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ثم جلـس فغلبته عيناه فـقال: اللهم إنى أعوذ بك يا أبا عبدالله مالى أراك كأنك مريض فقال: وما لأويس أن لا يكون مريضًا يطعم المريض وأن النار تسعر تحته كـيف ينام بينهما وقال رجل من النـاء أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء فـقعدت ارقبه فلف نفسه

بعبـاءة ثم رمى نفسـه فلم ينقـلب من جنـب إلىّ فقلت له: رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعًا ثم لم تجدد الوضوء، فقالت: كنت الليلة كله جاثـلاً فى رياض الجنة أحيانًا وفـى أودية النار أحيانًا فـهل فى ذلك نوم.

وقال ثابت البنانى: أدركت رجالاً كان أحدهم يصلى فيعجز عن أن يأتى فراشـه إلا حبـوًا، وقيل: مكث أبو بكر بن عيـاش أربعين سـنة لا يضع جنبه على فراش ونزل الماء فى إحدى عـينيه فمكث عشرين سـنة لا يعلم به أهله وقيل: كان يقرأ، ﴿قل هو الله أحد﴾[1] إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مـرة شك الراوى، وكان منصور بن المعتـمر إذا رأيته قلت: رجل أصيب بمصيبة منكر الطرف منخفض الصوت طب العينين إن حـركتـه جاءت عـيناه بأربع، ولقـد قالت لـه أمه: مـا هذا الذى تصنع بنفسـك تبكى الليل عامته لا تسكت لعلك يا بنى أصبت نفسًـا لعلك قتلت قتيلاً؟

فيقول: يا أماه أنا أعلم بما صنعت نفسى، وقيل لعامر بن عبدالله: كيـف صبرك على سهر الليل وظمـأ الهواجر، فقال: هو إلا أنى صرفت طعام الـنهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهـار وليس فى ذلك خطـير أمر وكان يقـول: ما رأيت مـثل الجنة نام طالبهـا، ولا مثل النار نام هـاربها وكان إذا جـاء الليل قال: أذهب حـر النار النوم فـما ينام حـتى إذا جاء النهار قال أذهب حر النار النوم فمـا ينام حتى يمسى فإذا جاء الليل قال: من خاف أدلج وعند الصباح يحمد القوم السرى. وقال بعضهم:

(١) سورة الإخلاص الآية (١).

صحبت عـامر بن عبد القـيس أربعة أشهر فمـ
النهـار. ويروى عن رجل من أصـحـاب على بن أبو
تعالى عنه- أنه قال: صليت خلف على -رضى الله
فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلع
يده وقال: والله لقـد رأيت أصحـاب محـمد ﷺ و
يشبههم كانوا يصبحـون شعثًا غبرًا صفرًا قد باتوا لله
كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم وكانوا إذا
يميد الشـجر فى يوم الريح وهملت أعيـنهم حتى تبل
باتوا غافلين يعنى من كان حوله وكان أبو مسلم الخو
فى مسجد بيته يخوف به نفسه، وكان يقول لنفسه: قو
بك حـتى يكون الكلل منك لا منـى فإذا دخلت الـ
وضرب به سـاقه ويقـول: أنت أولى بالضرب من دا
أيظن أصحـاب محمد ﷺ أن يستـأثروا دوننا كلا وا
زحامًا حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالاً.

وكان صفـوان بن سليم قد تعقدت ساقـاه من
الاجتهاد ما لو قـيل له القيامة غدًا ما وجد متـزايد،
اضطجع على السطح ليضربه البـرد وإذا كان فى الص
البيوت ليـجد الحر فلا ينام وإنه مات وهو ساجـد وإ
إنى أحب لقاءك فأحب لقائى.

وقال القاسم بن محمد غدوت يومًا وكنت إذا
-رضى الله عنها- أسلم عليهـا فغدوت يومًا إليهـا فإ

الصيحتين حتى صاح. وعنهم القاسم بن راشد الشيبانى قال: كان دمعه نازلاً عندنا بالمحصب. وكان له أهل وبنات، وكان يقوم فيصلى ليلاً طويلاً فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته أيها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون أفلا تقومون فترحلون فيواثبون فيسمع من ههنا داع ومن ههنا قارئ ومن ههنا متوضئ فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السرى.

وقال بعض الحكماء: إن لله عباداً أنعم عليهم فعرفوه وشرح صدورهم فأطاعوه وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين وبيوتًا للحكمة وتوابيت للفطنة وخزائن للقدرة فهم بين الخلق مقبلون ومدبرون وقلوبهم تجول فى الملكوت وتلوذ محجوب الغيوم ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد وما لا يمكن واصفًا أن يصفه فهم فى باطن امورهم كالديباج حسناوهم فى الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعًا وهذه طريقة لا يبلغ إليها بالتكلف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء. وقال بعض الصالحين: بينما أنا أسير فى بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى واد هناك فإذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تجيبه لها دوى عال فاتبعت الصوت فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية: **﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا .. إلى قوله تعالى: ويحذركم الله نفسه﴾**(١) قال: فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خر مغشيًا عليه فقلت وا أسفاه هذا لشقائى ثم انتظرت إفاقته فأفاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول: أعوذ بك من مقام الكذابين أعوذ

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠.

بك من أعمال البطالين أعوذ بك من إعراض الغافلين ثم قال: خشعت قلوب الخائفين وإليك فزعت آمال المقصرين ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ثم نفض يده فقال: ما لى وللدنيا وما للدنيا ولى عليك يا دنيا بأبناء جنسك وإلا فى نعيمك إلى محبيك فاذهبى وإياهم فاخدعى ثم قال: أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة فى التراب يبلون وعلى الزمان يفنون فناديته يا عبدالله أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك فقال: وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره يخاف سبقها بالموت إلى نفسه؟ أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه وبقيت أثامه؟ ثم قال: أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها ثم لها عنى ساعة وقرأ **﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾**(١) ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى وخر مغشيًا عليه فقلت: قد خرجت روحه فدنوت منه فإذا هو يضطرب ثم أفاق وهو يقول: من أنا، ما خطرى، هى لى أساءت من فضلك وجللنى بسترك واعف عن ذنوبى بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك فقلت له: بالذى ترجوه لنفسك وتثق به ألا كلمتنى فقال عليك بكلام من ينفعك كلامه ودع كلام من أوبقته ذنوبه إنى فى هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس ويجاهدنى فلم يجد عونًا على ليخرجنى مما أنا فيه غيرك فإليك عنى يا مخدوع فقد عطلت على لسانى وميلت إلى حديثك شعبة من قلبى وأنا اعوذ بالله من شرك ثم أرجو أن يعيذنى من سخطه ويتفضل على برحمته قال: فقلت: هذا ولى الله أخاف أن أشغله فأعاقب فى موضعى هذا فانصرفت وتركته، وقال بعض الصالحين: بينما أنا أسير فى مسير لى إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها فإذا أنا بشيخ قد أشرف على فقال لى: يا

(١) سورة الزمر الآية ٤٧.

هذا قم فإن الموت لم يمت ثم هام على وجهه فاتبعته فسمعته وهو يقول كل نفس ذائقة الموت اللهم بارك لى فى الموت فقلت: وفيما بعد الموت فقال: من أيقن بما بعد الموت شد مئزر الحذر ولم يكن ثم فى الدنيا مستقر له قال: يا من لوجهه عنت الوجوه بيض وجهى بالنظر إليك واملأ قلبى من المحبة لك وأجرنى من ذل التوبيخ غداً عندك فقد آن لى الحياء منك وحان لى الرجوع من الإعراض عنك ثم قال: لولا حلمك لم يسعنى أجلى ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملى ثم مضى وتركنى وقد أنشدوا فى هذا المعنى:

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد	تراه بقمة أو بطن وادى
ينوح على معاصٍ فاضحات	يكدر ثقلها صفو الرقاد
فإن هاجت مخاوفه وزادت	فدعوته أغثنى يا عمادى
فانت بما ألاقيه عليم	كثير الصفح عن ذلل العباد

وقيل أيضاً:

ألذ من التلذذ بالغوانى	إذا أقبلن فى حلل حسان
منيب فر من أهل ومال	يسيح إلى مكان من مكان
لتحمل ذكره ويعيش فردا	ونظفر فى العبادة بالأمانى
تلذذه التلاوة أين ول	وذكر بالفوائد وباللسان
وعند الموت يأتيه بشير	يبشر بالنجاة من الهوان
فيدرك ما أراد وما تمنى	من الراحات فى غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يختم القرآن فى كل يوم ثلاث مرات ويجاهد نفسه فى العبادات غاية المجاهدة فقيل له: قد أجهدت نفسك فقال: كم

عمر الدنيا؟ فقيل سبعة آلاف سنة، فقال: كم مقدار يوم القيامة؟ فقيل: خمسون ألف سنة، فقال: كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم يعنى إنك لو عشت عمر الدنيا واجتهدت سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لما كان ربحك كثيرا وكنت بالرغبة فيه جدير فكيف وعمرك قصير والآخرة لا نهاية لها فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين فى مرابطة النفس ومراقبتها فمهما تمردت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فإنه قد عز الآن وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع فى القلب وأبعث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء فإن لم تكن إبل فمعزى وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون فى زمرتهم وغمارهم وهم العقلاء والحكماء وذو البصائر فى الدنيا وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ولا ترضى لها أن تنخرط فى سلك الحمقى وتقنع بالتشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها يا نفس لا تستنكفى أن تكونى أقل من امرأة فاحسى برجل يقصر عن امرأة فى أمر دينها ودنياها، ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات.

فقد روى عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت: إلهى قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامى بين يديك ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت: إلهى هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنأ أم

رددتها على فأعزى وعزتك لهذا دأبى ودأبك ما أبقيتنى وعزتك لو انتهرتنى عن بابك ما برحت لما وقع على نفسى من وجودك وكرمك.

ويروى عن عفرة أنها كانت تحى الليل وكانت مكفوفة البصر فإذا كان فى السحر نادت بصوت لها محزون إليك قطع العابدون دجى الليالى يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك فيك يا إلهى أسالك لا بغيرك أن تجعلنى فى أول زمرة السابقين وأن ترفعنى لديك فى عليين من درجة المقربين وأن تلحقنى بعبادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يا كريم ثم تخر ساجدة فيسمع لها وصية ثم لا تزال تدعو وتبكى إلى الفجر.

وقال يحيى بن بسطام: كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء فقلت لصاحب لى لو أتيناها إذ خلت فأمرناها بالرفق بنفسها فقال: أنت وذاك قال: فأتيناها فقلت لها: لو رفقت بنفسك واقتصرت من هذا البكاء شيئًا فكان لك أقوى على ما تريدين قال: فبكت ثم قالت: والله لوددت أن أبكى حتى تنفد دموعى ثم أبكى دمًا حتى لا تبقى قطرة من دم فى جارحة من جوارحى وأنى لى بالبكاء فلم تزل تردد وأنى لى بالبكاء حتى غشى عليها.

وقال محمد بن معاذ: حدثتنى امرأة من المتعبدات قالت: رأيت فى منامى كأنى دخلت الجنة فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم فقلت: ما شأن أهل الجنة قيام فقال لى قائل: خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التى زخرفت شعوانة الجنان لقدومها فقلت: ومن هذه المرأة فقيل: أمة سوداء من أهل الأيكة يقال لها شعوانة قالت: فقلت: أختى والله قالت فبينما

أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبة تطير بها فى الهواء فلما رأيتها ناديت يا أختى أما ترين مكانى من مكانك فلو دعوت لى مولاك فألحقنى بك قالت: فتبسمت إلى وقالت: لم يأن لقدومك ولكن احفظى عنى اثنتين: الزمى الحزن من قلبك وقدمى محبة الله على هواك ولا يضرك متى وقال عبدالله بن الحسن: كانت له جارية رومية، وكنت بها معجبًا فكانت فى بعض الليالى نائمة إلى جنبى فانتبهت فالتمستها فلم أجدها فقمت أطلبها فإذا هى ساجدة وهى تقول: بحبك لى إلا ما غفرت لى ذنوبى فقلت لها: لا تقولى بحبك لى ولكن قولى: بحبى لك. فقالت: يا مولاى بحبه لى أخرجنى من الشرك إلى الإسلام وبحبه لى أيقظ عينى وكثير من خلقه نيام.

وقال أبو هاشم القرشى: قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها: سرية فنزلت فى بعض ديارنا قال: فكنت أسمع لها من الليل أنينًا وشهيقًا فقلت يومًا لخادم لى: أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع؟ قال: فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئا غير أنها لا ترد طرفها عن السماء وهى مستقبلة القبلة تقول: خلقت سرية ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال وكل أحوالك لها حسنة، وكل بلائك عندها جميل وهى مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة بعد فلتة أتراها تظن أنك لا ترى سوء فعالها، وأنت عليم خبير وأنت على كل شىء قدير.

وقال ذو النون المصرى: خرجت ليلة من وادى كنعان فلما علوت الوادى إذا سواد مقبل علىّ وهو يقول ﴿**وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون**﴾[1]. ويبكى فلما قرب منى السواد إذا هى امرأة عليها جبة

(١) سورة الزمر الآية ٤٧.

صوف وبيدها ركوة فقالت لى: من أنت غير فزعة منى؟ فقلت: رجل غريب فقالت: يا هذا وهل يوجد مع الله غربة؟ قال: فبكيت لقولها لى فقالت لى: ما الذى أبكاك؟ فقلت: قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع فى نجاحه قالت: فإن كنت صادقًا فلم بكيت؟ قلت: يرحمك الله، والصادق لا يبكى قالت: لا، قلت: ولم ذاك؟ قالت: لأن البكاء راحة القلب فسكت متعجبًا من قولها.

وقال أحمد بن على: استأذنا على عفرة، فحجبتنا فلازمنا الباب فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعتها وهى تقول: اللهم إنى أعوذ بك ممن جاء يشغلنى عن ذكرك، ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها: يا أمة الله ادعى لنا فقالت: جعل الله قراكم فى بيتى المغفرة، ثم قالت لنا: مكث عطاء السلمى أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء فخانت منه نظرة فخر مغشيًا عليه فأصابه فتق فى بطنه فيا ليت عفرة إذا رفعت رأسها لم تعصى ويا ليتها إذا عصت لم تعد.

وقال بعض الصالحين: خرجت يومًا إلى السوق ومعى جارية حبشية فاحتبستها فى موضع بناحية السوق وذهبت فى بعض حوائجى وقلت: لا تبرحى حتى أنصرف إليك قال: فانصرفت فلم أجدها فى الموضع فانصرفت إلى منزلى وأنا شديد الغضب عليها فلما رأتنى عرفت الغضب فى وجهى فقالت: يا مولاى لا تعجل على إنك أجلستنى فى موضع لم أر فيه ذاكرًا لله تعالى فخفت أن يخسف بذلك الموضع فعجبت لقولها وقلت لها: أنت حرة فقالت: ساء ما صنعت كنت أخدمك فيكون لى أجران وأما الآن فقد ذهب عنى أحدهما.

وقال ابن العلاء السعدى: كانت لى ابنة عم يقال لها: بريرة تعبدت وكانت كثيرة القراءة فى المصحف فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت فلم تزل تبكى حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها: انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعزلها فى كثرة البكاء قال: فدخلنا عليها فقلنا يا بريرة كيف أصبحت؟ قالت أصبحنا أضيافًا منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب فقلنا لها: كم هذا البكاء؟ قد ذهبت عيناك منه فقالت: إن يكن لعينى عند الله خير فما يضرهما ما ذهب منها فى الدنيا، وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدها بكاء أطول من هذا ثم أعرضت قال: فقال القوم قوموا بنا فهى والله فى شىء غير ما نحن فيه.

وكانت معاذة العدوية إذا جاء النهار تقول هذا يومى الذى أموت فيه فما تطعم حتى تمسى فإذا جاء الليل تقول: هذه الليلة التى أموت فيها فتصلى حتى تصبح.

وقال أبو سليمان الدارانى: بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها، وقمت أنا إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السحر فلما كان السحر قلت: ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة قالت: جزاؤه أن تصوم له غدًا.

وكانت شعوانة تقول فى دعائها: إلهى ما أشوقنى إلى لقائك وأعظم رجائى لجزائك، وأنت الكريم الذى لا يخيب لديك الآملين، ولا يبطل عندك شوق المشتاقين، إلهى إن كان دنا أجلى ولم يقربنى منك عمل فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللى فإن عفوت فمن أولى منك بذلك وإن عذت فمن أعدل منك هنالك إلهى قد جرت على نفسى

فى النظر لها وبقى لهـا حسن نظرك، فالويل لها إن لم تسـعدها، إلهى إنك لم تزل بى براً أيام حياتى فلا تقطع عنى برك بعد مماتى ولقد رجوت ممن تولانى فى حياتى بإحسانه أن يسعفنى عند مماتى بغفرانه، إلهى كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتى ولم تولنى إلا الجـميل فى حياتى، إلهى إن كانت ذنوبى قد أخافتنى فإن محبتى لك قد أجارته فتول من أمرى ما أنت أهله وعـد بفضلك على من غـره جـهله، إلهى لو أردت إهانتى لما هديتنى ولو أردت فضيحتى لم تسـترنى فمتعنى بما له هديتنى وادم لى ما به سترتنى إلهى أظنك تردنى فى حاجة أفنيت فيها عمرى، إلهى لولا ما قرفت من الذنوب ما خفت عقابك ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك.

وقال الخواص: دخـلنا على رحلة العابدة وكانت قد صـامت حتى اسودت، وبكت حتى عميت، وصلت حتى أقعدت وكانت تصلى قاعدة فسلـمنا عليهـا ثم ذكرناها شـيئًا من العـفو ليـهون عليـها الأمـر قال: فشهقت، ثم قالت: علمى بنفـسى فرح فؤادى وكلم كبدى والله لوددت أن الله لم يخلقنى ولم أك شيئًا مذكوراً ثم أقبلت على صلاتها.

فـعليك إن كنت من المرابـطين المراقـبين لنفـسك أن تطالع أحـوال الرجال والنساء من المجتهـدين لينبعث نشـاطك ويزيد حرصك، وإياك أن تنظر إلى أهل عـصـرك فإنك إن تطع أكـثـر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله، وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر وإن أردت مزيداً فعليك بالمواظبة على مطالعة كـتاب «حلية الأولياء» فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه

يستبين لك بعـدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين فـإن حدثتك نفـسك بالنظر إلى أهل زمانك، وقـالت: إنما تيسر الخير فى ذلـك الزمان لكثرة الأعـوان والآن فـإن خالفت أهـل زمانك رأوك مـجنونا وسـخـروا بك فوافقهم فـيما هم فيه وعليه فلا يجرى عليك إلا مـا يجرى عليهم، فإن المصيبة إذا عمت طابت فإياك أن تتـدلى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها وقل لهـا أرأيت لو هجم سـيل جـارف يغـرق أهل البلد وثبـتـوا أعلى مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم لحقيقة الحال وقدرت أنت على أن تفارقـيهم وتركبى فى سـفينة تتخلصـين بها من الغرق فـهل يختلج فى نفسك أن المصيبة إذا عمت طابت أم تتركيـن موافقتهم وتستجهلينهم فى صنيعهم وتأخـذين حذرك مما دهاك فإذا كنت تتركين موافقـتهم خوفاً من الغرق، وعـذاب الغرق لا ينادى إلا سـاعة فكيف لا تهـربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له فى كل حـال؟ ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت؟ ولأهل النار شغل شـاغلى الالتفـات إلى العموم والخـصوص ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمـانهم حيث قالوا: ﴿إنا وجدنا آباءنـا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾(١) فعليك إذا اشتغلت بمعـاتبة نفسك وحملها الاجتهاد فاستعصت أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها وتقريعها وتعريفها سوء نظرها لنفـسها لعلها تنزجر عن طغيانها.

(المرابطة السادسة فى توبيخ النفس ومعاتبتها)

اعلم أن أعدى عـدوك نفسك التى بين جنبيك، وقـد خلقت أمارة بالسـوء ميالة إلى الشر فرارة من الخير، وأمـرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها، ومنعها عن شهواتها وفطامها عن

(١) سورة الزخرف الآية ٢٣.

وشـردت ولم تظفر بها بعد ذلك وإن لازمتها
والملامـة كانت نفسك هى الـنفس اللوامة التى
تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى
بة فلا تغـفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا
شتغل أولاً بوعظ نفـسك.

عيسى عليه السلام يابن مريم عظ نفسك فإن
ستحى منى وقال تعالى: ﴿وذكر فإن الذكرى

يها فـتقرر عندها جـهلها وغباوتهـا وأنها أبداً
يشتد أنفهـا واستنكافها إذا نسـبت إلى الحمق
عظم جـهلك تدعين الحكمة والذكـاء والفطنة
معًا، أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار
ا على القـرب فـمالك تفـرحين وتضـحكين
ختطفين

ما هو
فتة من
دون

بك مع كنز أو يسـ
منك ولا طلب أفته
أن سنة الله لا تعـد
للانسان إلا ما سعـ

بة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم
سعيداً ويراه الله قريباً أمـا تعلمين أن كل
ليس بآت أما تعلمين أن الموت يـأتى
مواعـدة ومواطاة وأنه لا يأتى فى شـ

وهو أقرب إليك من كل قـريب أما تتدبرين قـوله تعالى: ﴿اقترب للناس حسـابهم وهم فى غـفلة معرضـون، مـا يأتيهم من ذكـر من ربهم محدث إلا استمـعوه وهم يلعبون، لاهية قلوبهم﴾[1] ويحك يا نفس إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مـع علمك باطلاعه عليك فـما أشـد وقاحـتك وأقل حيـائك ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهيه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأى جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه أفتظنين أنك تطقين عذابه هيـهات هيهات جربى نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبـسى ساعة فى الشمس أوفى بيت الحمام أو قربى أصـبعك من النار ليـتبين لك قـدر طاقتك أم تغتـرين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعـبادتك فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى فى مهمـات دنياك فإذا قصدك عدو فلم تسـتنبطين الحيل فى دفعه ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضى إلا بالدينار والدرهم فـمالك تنزعين الروح فى أجلها وتحصيلهـا من وجه الحيل فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حـتى يعثر عبداً من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعى ...سبين أن الله كـريم فى الآخرة دون الدنيا وقد عرفت ...يل لهـا، وأن رب الآخـرة والدنيـا واحـد وأن ليس ...، ويحك يانفس مـا أعجب نفاقك ودواعيك الباطلة ... بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك: ... دابة فى الأرض إلا على الله رزقـها﴾[2] وقال فى أمر ... للإنسان إلا مـا سعى﴾[3] فقد تكفل لك بأمر الدنيا ... السعى فيها فكذبتيه بأفعالك وأصبحت تتكالين على

: ٣]. (٢) سورة هود الآية ٦.

طلبها تكالب المدهوش المستهتر ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ما هذا من علامات الإيمان لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون فى الدرك الأسفل من النار.

ويحك يا نفس كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت وهيهات. اتحسبين أنك تتركين سدى ألم تكونى نطفة من منى يمنى ثم كنت علقة فخلق فسوى، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك وأجهلك أما تتفكرين أنه لماذا خلقك من نطفة فقدرك ثم السبيل يسرك ثم أماتك فأقبرك أفتكذبينه فى قوله، ثم إذا شاء أنشرك فإن لم تكونى مكذبة فمالك لا تأخذين حذرك ولو أن يهوديًا أخبرك فى الذ طعامك بأنه يضرك فأمرضك فصبرت عنه وتركتيه وجاهدت نفسك فيه، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى فى كتبه المنزلة أقل عندك تأثيرًا من قول يهودى يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم، والعجيب أنه لو أخبرك طفل بأن فى ثوبك عقربًا لرميت ثوبك فى الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان، أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك من قول صبى من جملة الأغبياء، أم صار حر جهنم وأغلالها وأنكالها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسين بألمها إلا يومًا أو أقل ما هذه أفعال العقلاء، بل لو انكشفت للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فمالك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعله يختطفك من غير مهلة فيما إذا أمنت استعجال الأجل وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة

أفتظنين أن من يطعم الدابة فى حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها، إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك.

أرأيت لو سافر رجل ليتفقه فى الغربة فأقام فيها سنين متعطلاً بطالاً يعد نفسه بالتفقه فى السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه أتفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريبة أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتمادًا على كرم الله سبحانه وتعالى.

ثم هبى أن الجهد فى آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلا.

فلعل اليوم آخر عمرك.

فلم لا تشتغلين فيه بذلك فإن أوصى إليك بالإمهال فما المانع من المبادرة وما الباعث لك على التسويف؟ هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة؟

أتنتظرين يومًا يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس وهذا محال وجوده أما تتأملين مذ كم تعدين نفسك وتقولين: غدًا غدًا فقد جاء الغد.

وصار يومًا فكيف وجدته أما علمت أن الغد الذى جاء وصار يومًا كان له حكم بالأمس بل تعجزين عنه اليوم فأنت غدًا عنه أعجز وأعجز، لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التى تعبد العبد بقلعها فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوى

فـأخـرها إلى سنة أخـرى مع العلـم بأن طول المدة يزيد الشـجـرة قـوة ورسوخًا ويزيد القالع ضعفًا ووهنًا فـما لا يقدر عليه فى الشباب لا يقدر عليه قط فى المشيب.

بل من العناء رياضة الهرم، ومن التعـذيب تهذيب الدين والقضيب الرطب يقبل الانحناء فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك.

فإذا كنت أيتـها النفس لا تفـهمين هذه الأمور الجلـية وتركنين إلى التسويف.

فما بالك تدعين الحكمة وأية حمـاقة تزيد على هذه الحماقة ولعلك تقولين ما يمنعنى عن الاستقـامة إلا حرص على لذة الشهوات وقلة جرى على الآلام والمشقات فـما أشد غباوتك وأقبح اعتـذارك إن كنت صادقة فى ذلك فـاطلبى التنعم بالشهـوات الصامـتة عن الكدورات الدائمـة أبد الآباد ولا قطع فى ذلك إلا فى الجنة.

فإن كنت ناظرة لشـهوتك فالنظر لها فى مـخالفتهـا فرب أكلة تمنع أكلات.

وما قـولك فى عقل مريض، أشـار عليه الطبيب بتـرك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربه طوال عمره وأخره إنه إن شرب ذلك مرض مرضًا مزمنًا وامتنـع عليه شربه طول العمر فما مقتـضى العقل فى قضاء حق الشهوة أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر أم يقضى شهوته فى الحال خوفًا من ألم المخالفة ثلاثة أيام.

حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذى هو مدة نعيم أهل الجنة. وعذاب أهل النار.

أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته وليت شعرى ألم الصبر على الشهوات أعظم شدة وأطول مدة.

أو ألم النار فى دركـات جـهنم فـمن لا يطيق الصـبـر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله مـا أراك تتوبين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفى أو لحمق جلى.

أما الكفر الخفى فهو شعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والـعقاب وأما الحمق الجلـى فاعتمادك على كـرم الله تعالى وعفوه من غيـر التفات إلى مكره واستدراجه واسـتغنائه عن عبادتك مع أنك لا تعتمدين عـلى كرمه فى لقمة من الخبز أو حـبة من المال أو كلمة واحدة تسـمـعينها من الخلق، بل تتوصلين إلى غـرضك فى ذلك بجميع الحيل أو حبة من المال أو كلمة واحدة تسمعينها من رسول الله ﷺ حيث قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بـعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى».

ويحك يا نفس لا ينبـغى أن تغـرك الحيـاة الدنيا ولا يغـرنك بالله الغرور، فـانظرى لنفسك فـما أمـرك بمهم لغيـرك ولا تضيـعى أوقاتك فالأنفـاس معـدودة فإذا مضى فـيك نفس فقـد ذهب بعضك فـاغتنمى الصحة قـبل القسم، والفراغ قبل الشـغل، والغنى قبل الفقـر، والشباب قبل الهرم، والحياة قبل الموت.

واستـعدى للآخرة علـى قدر بقائك فـيها، يا نفس أمـا تـستـعدين للشتاء بـقدر طول مدته فتجـمعين له القوت والكسوة والحـطب وجميع الأسباب ولا تتكلين فى ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد

من غير حيــة وليد وحطب وغير ذلك فإنه قادر على ذلك أفــتظنين أيتها النفس أن زمهــرير جهنم اخف بردًا وأقــصر مدة عن زمــهرير الشــتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا كــلا أن يكون هذا كــذلك أو أن يكون بينــهمــا مناسبة.

فى الشدة والبرودة أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعى هيهات لما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجنة والنار.

وسائر الأســباب فــلا يندفع حر النار وبردها إلا بحــصن التوحــيد وخندق الطاعات وإنما كرم الله تعالى فى أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أســبابه لا فى أن يندفع عنك العــذاب دون حصن كــما أن كــرم الله تعالى فى دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك الطريق استخراجها من بين حديدة وحــجر حــتى تدفعى بها بــرد الشتاء عن نفــسك وكمــا أن شراء الحطب والجبة فما يستغنى عنه خالقك ومولاك، وإنما تشترينه لنفسك.

إذ خلقــــه سببًا لاستراحتك فطاعاتك ومجاهدتك أيضًا هو مستغن عنها وإنما هى طريقك إلى نجاتك.

فمن أحسن فلنفسه ومن أســاء فعليها والله غنى عن العالمين ويحك يا نفس، انزعى عن جهلك وقيسى آخرتك بدنياك فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة.

وكما بدأنا أول خلق نعيده، وكما بدأكم تعودون، وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلا ولا تحويلا.

ويحك يا نفس إذا ما ألفت الدنيــا وأنست بها فعز عليك مفارقــتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكدين فى نفسك مودتها فاحسبى أنك غافلة

عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فما أنت مؤمنة بالموت المغرق.

بينك وبين مــحابك، أفــتريــن أن من يدخل دار ملك ليخــرج من الجانب الآخر فمن بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه.

ثم يضطر لا مــحالة إلى مــفارقــته أهو معــدود من العقــلاء أم من الحمقى. أما تعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك.

ومالك فيــها إلا مجاز وكل ما فــيها لا يصحب المجتــازين بها بعد الموت ولذلك قال سيد البشر ﷺ إن روح القدس نفث فى روحى أحبب من احببت فــإنك مفارقه، واعــمل ما شئت فإنك مــجزى به، وعش ما شئت فإنك ميت.

ويحك يا نفس أتعلمين أن كل من يلــتفت إلى ملاذ الدنــيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدرى.

أمــا تنظرين إلى الذين مــضوا كــيف بنوا وعلوا ثم ذهبــوا وخلوا، وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم.

أمــا ترينهم كيف يــجمــعون مــا لا يأكلون ويبنون مــا لا يــكنون ويؤجلون ما لا يدركون بين كل واحد قصرًا وقوى إلى جهة الســماء وقوة قبر محفور تحت الأرض فهل فى الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا.

يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنهــا يقينًا ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعًا أما تستحين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم.

وأحسب أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى هذه الأمور وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء فقيسى عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا.

واقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين فى نفسك العقل والذكاء.

يا نفس ما أعجب أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك، عجبًا لك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجليلة ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها أو ما تتفكرين أن النجاة لا معنى لها إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك فاحسبى أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك أفما تعرفين إنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد مما على الأرض سجد لك.

وسيأتى زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أن على الملوك الذين كانوا من قبلك، ﴿فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا﴾(١)، فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقى هذا إن كنت ملكًا من ملوك الأرض.

سلم لك الشرق والغرب حتى إذا عنت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب كيف ويأتى إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلاً عن محلتك فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة فى الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك.

فما لك لا تتركينها ترفعًا عن خسة شركائها وتنزها عن كثرة عنائها وتوقيًا من سرعة فنائها فما لك لا تزهدين فى قليلها بعد أزهد فيك

(١) سورة مريم الآية ٩٨.

كثيرها وما لك تفرضين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس.

يسبقونك بها ويزيدون عليك فى نعيمها وزينتها فللدنيا يسبقك هؤلاء الأخساء فما أجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذا رغبت عن أن تكون فى زمرة المقربين من النبيين والصديقين فى جوار رب العالمين أبد الآبدين لتكونى فى صف النعال.

من جملة الحمقى الجاهلين أيامًا قلائل فيا حسرة عليك، إن خسرت الدنيا والدين.

فبادرى ويحك يا نفس، فقد أشرفت على الهلاك واقترب الموت ورد النذير فمن ذا يصلى عنك بعد الموت، ومن ذا يصوم عنك بعد الموت، ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت.

ويحك يا نفس ما لك إلا أيام معدودة هى بضاعتك إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة فى حق نقصك.

فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك، أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود آتيك والفزع الأكبر بين يديك.

أما علمت يا نفس أن عسكر الموت عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيمان المغلظة أنهم لا يرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم، أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يومًا ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم وأنت فى أمنيتهم ويوم من عمرك لو

بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه، وأنت تضيعين أيامك فى الغفلة والبطالة.

ويحك يا نفس، أما تستحين تزينين ظاهرك للخلق، وتبارزين الله فى السر بالعظائم، أفتستحين من الخلق، ولا تستحين من الخالق.

ويحك، أهو أهون الناظرين عليك أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل تدعين إلى الله وأنت فارة، وتذكرين بالله وأنت له ناسية.

أما تعلمين يا نفس أن المذنب أنتن من العذرة، وأن العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين فى تطهير غيرك وأنت غير طيبة فى نفسك.

ويحك يا نفس، لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك

ويحك يا نفس قد جعلت نفسك حمارًا لإبليس يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك.

ومع هذا فتعجبين بعملك، وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأسًا برأس لكان الربح فى يديك، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزلك وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتى ألف سنة.

وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه، ويحك يا نفس ما أقذرك، ويحك يا نفس ما أوقحك، ويحك يا نفس ما أجهلك.

وما أجرك على المعاصى، ويحك كم تعقدين فتنقضين، ويحك كم تعقدين فتعذرين، ويحك يا نفس أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك

كأنك غير مرتحلة عنها أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جمعوا كثير وبنوا مشيدًا وأملوا بعيدًا فأصبح جمعهم بورًا وبنيانهم قبورًا وأملهم غرورًا، ويحك يا نفس أما لك بهم عبرة أما لك إليهم نظرة أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين هيهات هيهات ساء ما تتوهمين ما أنت إلا فى هرم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فابنى على وجه الأرض قصرك فإن بطنها عن قليل يكون قبرك.

أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقى أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن.

أو يرحم منك البكاء والعجب كل العجب منك يا نفس إنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك.

ولا تحزنين بنقصان عمرك وما نفع مال يزيد وعمر ينقص، ويحك يانفس، تعرضين عن الآخرة وهى مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهى معرضة عنك.

فكم من مستقبل يومًا لا يستكمله وكم من مؤمل لغد لا يبلغه فأنت تشاهدين ذلك فى إخوانك وأقاربك وجيرانك فترين تحسرهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك فاحذرى أيتها النفس المسكينة يومًا إلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدًا أمره فى الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلانيته.

فانظرى يا نفس بأى بدن تقفين بين يدى الله وبأى لسان تجيبين واعدى للسؤال جوابًا وللجواب صوابًا.

واعملى بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال وفى دار زوال لدار مقام.

وفى دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود اعملى قبل أن لا تعملى اخرجى من الدنيا اختيار خروج الأحرار قبل أن تخرجى منها على الاضطرار ولا تفرحى بما يساعدك من زهرات الدنيا.

فرب مسرور مغبون، ورب مغبون لا يشعر فويل لمن له الويل ثم لا يشعر يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له فى كتاب الله أنه من وقود النار، فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتباراً وسعيك لها اضطراراً ورمقك لها اختياراً وطلبك للآخرة ابتداراً ولا تكونى ممن يعجز عن شكر ما أوتى ويبتغى الزيادة فيما بقى وفيها الناس ولا ينتهى.

واعلمى يا نفس أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدل ولا للجسد خلف ومن كانت مطيته الليل والنهار.

فإنه يسار به وإن لم يسر فاتعظى يا نفس بهذه الموعظة واقبلى هذه النصيحة فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعينى عليها بدوام التهجد والقيام، فإن لم تذل فبالمواظبة على القيام فان لم تذل فبقلة المخالطة والكلام، فإن لم تذل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام، فإن لم تذل فاعلمى أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه فوطنى نفسك على النار، فقد خلق الله الجنة، وخلق لها أهلاً وخلق النار وخلق لها أهلاً، فكل ميسر لما خلق له فلم يبق فيك مجال للوعظ.

فاقنطى من نفسك، والقنوط كبيرة من الكبائر، نعوذ بالله من ذلك فلا سبيل لك إلى القنوط ولا سبيل لك إلى الرجاء.

مع انسداد طرق الخير عليك. فإن ذلك اغترار وليس برجاء فانظرى الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التى ابتليت بها تسمح وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فإن سمحت فمستقى الدمع مع بحر الرحمة فقد بقى فيك موضع للرجاء فواظبى على النياحة والبكاء واستعينى بأرحم الراحمين، واشتكى إلى أكرم الأكرمين وأدمنى الاستغاثة ولا تملى طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك فإن مصيبتك قد عظمت وبليتك قد تفاقمت وتماديت قد طال وقد انقطعت منك الحيل. وراحت عنك العلل.

فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجا إلا إلى مولاك.

فافزعي إليه بالتفرغ واخشعى فى تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك، لأنه يرحم المتضرع الذليل ويغيث الطالب المتلهف ويجيب دعوة المضطر.

وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة وإلى رحمته محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم تنجح فيك العظات.

بهذا يكون هذا الكتاب قد تم بحمد الله وتوفيقه، وفى هذا القدر كفاية لمن وقف عن قول الله تعالى ﴿**اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً**﴾[١].

*****

(١) سورة الإسراء الآية ١٤.

فهـــرس كتـــاب

الصفحة